من عالم الأرواح

روبرت بار



ترجمة أمنية طلعت

من عالم الأرواح

تأليف
روبرت بار

ترجمة
أمنية طلعت

مراجعة
شيماء طه الريدي



من عالم الأرواح

روبرت بار

From Whose Bourne

Robert Barr

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: يوسف غازي

الترقيم الدولي: ٨ ٢٤٠٠ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٨٩٣.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢١.

المحتويات

إلى

كل رجل مُخلص

وامرأة صالحة

مِن عالم الأرواح.

الفصل الأول

توجَّه ويليام برنتون بالحديث إلى زوجته قائلًا: «عزيزتي، هل تعتقدين أن أحدًا سيفتقد وجودي إذا صعدت إلى أعلى لبعض الوقت؟ لا أشعر أنني بحالةٍ جيدةٍ على الإطلاق.»

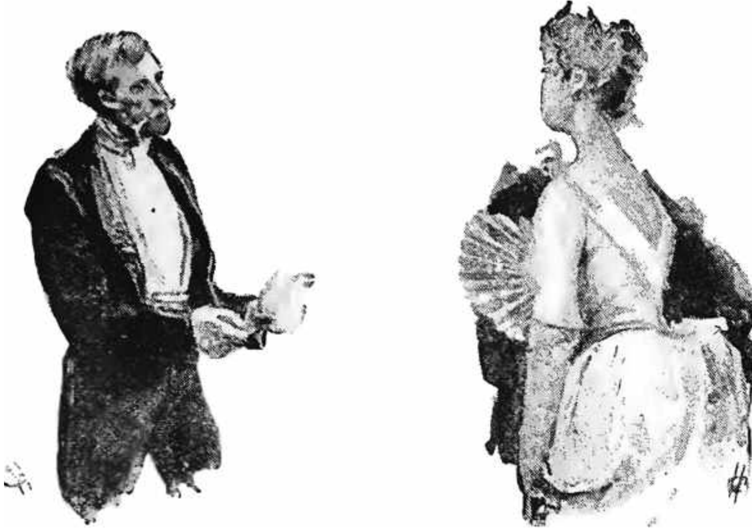
أجابته أليس وعلامات القلق تعلو وجهها: «يؤسفني ذلك يا ويليام، سأخبرهم بأنك متوعك.»

أجابها: «لا، لا تفعلي ذلك. أرى الحضور يقضون وقتًا ممتعًا وأظن أن الرقص سيبدأ بعد قليل؛ لهذا لا أظن أن أحدًا سيفتقد حضوري. إذا تحسَّنت، فسأنزل في غضون ساعة أو ساعتين، ولكن إن لم أشعر بتحسن، فسأذهب للنوم. والآن يا عزيزتي لا داعي للقلق واستمتعي بوقتٍ طيب مع باقي الحضور.»

انسحب ويليام برنتون إلى غرفته بالأعلى في هدوء وجلس على كرسي متأرجح وسط الظلام. ظل جالسًا لدقائق معدودة دون أن يشعر بأي تحسن، فخلع ثيابه ببطءٍ وذهب إلى الفراش. تسلَّلت إلى سمعه أصداء أصوات ضحكٍ وغناء خافتة، وفي النهاية بدأت الموسيقى، فاستشعر دبيب الأقدام الراقصة دون أن تدركه أذناه. وحالما توقفت الموسيقى لبعض الوقت، تسلَّلت أليس بخفةٍ على أطراف أصابعها وسألته بصوتٍ هادئ: «بمَ تشعر الآن يا ويليام؟ هل تشعر بأنك أفضل؟»

فأجابها بصوتٍ ناعس: «نوعًا ما. لا داعي للقلق، سأخلد إلى النوم الآن وسأكون في حالٍ أفضل في الصباح. تُصبحين على خير.»

كان ويليام لا يزال يسمع صوت الموسيقى والرقص والضحك وكأنه يحلم، وشيئًا فشيئًا لم يعد يُدرك ما يحدث حوله إلى أن دخل في حُلمٍ ليس كمثله حلم في غرابته ووضوح رؤيته. بدا له وكأنه جلس مجددًا على الكرسي المتأرجح إلى جانب فراشه. ورغم أنه يدرك أن الغرفة مظلمة، لم يجد صعوبةً في رؤية كل شيء بوضوحٍ جلي. بدت له أصوات الموسيقى



هل تعتقدين أن أحدًا سيفتقد وجودي؟

والرقص بالأسفل واضحةً تمامًا، لكن جعله يوجس في نفسه خيفةً أنه رأى في الحلم جسده مستلقيًا على الفراش. وكانت عيناه نصف مفتوحتَين ووجهه شاحبًا متيبسًا. كان لوجهه ذلك اللون الأبيض المائل إلى الرمادي كأنه أثر موت.

قال برنتون في نفسه: «هذا كابوس، عليَّ أن أحاول إيقاظ نفسي.» لكنه لم يقوَ على المحاولة فجلس مكانه ينظر إلى جسده والوقت يمر والليل ينقضي. وفجأةً نهض وانتقل إلى جانب الفراش. بدا أن وصوله حدث بمجرد تمنِّيه أن يصل إلى هناك، وأخذ يتحسس وجهه لكنه لم يدرك أي شعور باللمس. تمنى لو تأتي زوجته وتوقظه من هذه الحالة المخيفة التي تشبه الحلم، ووجد نفسه بمجرد تمني الأمر واقفًا بجوارها وسط هذا الحشد من الحضور في الأسفل المنهمك في بهجة بتوديع عامٍ أوشك أن يمضي. حاول برنتون أن يتحدث إلى زوجته لكنها لم تسمعه أو تلحظ وجوده في المكان على الرغم من وعيه وإدراكه لحديثه إليها.

أقيم هذا الحفل عشية عيد الميلاد، حتى إذا حانت الساعة الثانية صباحًا، غادر الضيوف متمنين للسيدة برنتون ليلة ميلاد سعيدة. في النهاية أُغلق الباب مع مغادرة آخر



جلس مجددًا على الكرسي المتأرجح.

ضيف منتشٍ، وحينها وقفت السيدة برنتون برهةً لتصدر تعليماتٍ إلى الخدم الذين بدأ النوم في مداعبة أجفانهم. تنهَّدت تنهيدةً مُتعَبَةً واستدارت متوجهةً لأعلى والسيد برنتون يسير ملازمًا لها حتى دخلا الغرفة المظلمة التي دخلتها زوجة السيد برنتون على أطراف أصابعها.

قال برنتون لنفسه: «الآن ستوقظني من هذا الحلم المفزع.» لم يكن في الحلم نفسه ما يخيف، لكن الشفافية التي كان يرى الأشياء عليها، وحقيقة أن عقله يقظ تمامًا أصاباه بحالةٍ من التشوش والبلبلة استحال عليه أن يتخلص منها.

في الضوء الخافت المتسرب من الممر، تهيأت زوجته لتأويَ إلى الفراش. صُدم برنتون بفكرة مريعة؛ وهي أن زوجته قد تظنه ينعم بنومٍ هنيء، وانتابه خوفٌ من أن تنصرف عن إيقاظه؛ لأنها دون شكٍّ لا يمكن أن تتخيل هذا الكابوس الذي يعيش داخله؛ ولذلك حاول مرةً أخرى أن يتواصل معها. ناداها باسمها مرةً تلو الأخرى، لكنها واصلت استعدادها

للنوم في هدوء. في النهاية، تسللت إلى الجانب الآخر من الفراش، وفي غضون لحظاتٍ دخلت في سُباتٍ عميق. حاول برنتون جاهدًا مرةً أخرى أن يفيق من نومه ولكن دون جدوى. سمع عقارب الساعة وهي تعلن الثالثة ثم الرابعة ثم الخامسة دون أن يطرأ أي تغيير على حلمه. خشي أن ما يتعرض له هو غيبوبة لن يفيق منها ربما إلا بعد فوات الأوان. لاح ضوء الصباح الرمادي ليضيء النافذة، ولاحظ برنتون تساقط الثلج في الخارج في هدوء؛ إذ كانت رقائق الثلج ترتطم بزجاج النافذة دون أن تُصدر صوتًا يُذكر. خلد الجميع إلى النوم في وقتٍ متأخر هذا الصباح ولكنه أخيرًا سمع صوت تحضير الإفطار في الأسفل، لا سيما صوت خفيف لقرقعة الصحون الخزفية على الطاولة وخشخشة حاملة الموقد. وجد نفسه — وهو هائم في التفكير في هذه الأصوات — في غرفة الطعام ورأى الخادمة الصغيرة ذات القوام المتناسق تتثاءب من حينٍ للآخر وهي تضع الأطباق في أماكنها. صعد لأعلى مجددًا ووقف يراقب وجه زوجته المستغرقة في نومها. بمجرد أن اعتلت يدها رأسها، ظن أنها ستفيق من نومها، لكنها في النهاية فتحت عينيها وظلت تحدق في السقف لفترة، محاولةً على ما يبدو أن تسترجع ما حدث أمس.

وبصوت لم يخلُ من أثر النوم: «ويل، أما زلت نائمًا؟»

لم يصدر أي ردٍّ من هذا الجسد المتيبِّس الراقد في مقدمة الفراش. بعد لحظات معدودة، وضعت يدها في هدوءٍ على وجه هذا الجسد النائم. في تلك اللحظة، كانت نظرة عينيها الفزعة تُظهر أن ثمة صدمةً ألَمَّت بها. اعتدلت في جِلستها على الفور ونظرت لثانيةٍ إلى وجه هذا الراقد جوارها ثم دوَّت صرخة كسرت أجواء الصمت والسكون داخل الغرفة وقفزت على الأرض.

أخذت تصرخ: «ويل، ويل، تحدث إليَّ! ماذا أصابك؟ يا إلهي، يا إلهي!» ظلت تصرخ وهي تبتعد عن الفراش بخطواتٍ مترنحة. بعد صرخة فأخرى، هُرعت دون تفكير إلى الممر ومنه إلى السُّلَّم وهناك سقطت على الأرض مغشيًّا عليها.

الفصل الثاني

جثا ويليام برنتون على ركبتَيه إلى جانب زوجته المغشي عليها في محاولة منه لتهدئتها وتسكين رَوعها، ولكن بدا واضحًا أنها فقدت وعيها.

صدر صوتٌ بجانبه يقول: «لا جدوى مما تفعل.»

رفع برنتون بصره فجأة، فرأى شخصًا غريبًا لا يعرفه يقف جواره. تساءل لبرهةٍ كيف دخل هذا الغريب إلى هنا، ولكن لظنه أن الأمر برُمَّته في النهاية هو حُلم، أجابه:

«ماذا تقصد؟ إنها لم تمُت بعد.»

أجاب الغريب: «أجل، ولكن أنت مَن فارقت الحياة.»

صرخ برنتون: «أنا! ماذا؟»

«أنت من يسميه العالم المادي ميتًا، رغم أنك في الحقيقة لم تبدأ الحياة إلى الآن.»

سأله برنتون: «ومَنْ أنت؟ وكيف دخلت إلى هنا؟»

ابتسم الغريب.

ثم كُرر سؤال برنتون ثانية: «كيف دخلت أنت إلى هنا؟»

«أنا؟ عجبًا، هذا منزلي أنا.»

«كان، تقصد كان منزلك.»

«بل أقصد أنه منزلي. أنا في منزلي وهذه السيدة زوجتي.»

قال الآخر: «كان.»

صاح برنتون وقد استشاط غضبًا: «أنا لا أفهمك. ولكن على أي حال، حضورك إلى هنا وتعليقاتك غير مُرحَّب بهما.»

قال الآخر: «سيدي الفاضل، لا أرغب إلا في مساعدتك وأن أوضِّح لك كل ما قد ترغب في معرفته عن وضعك الجديد. لقد تحررت الآن مما يُثقل بدنك. وقد شهدت بنفسك بعض



رأى شخصًا غريبًا لا يعرفه يقف جواره.

القدرات الأخرى التي منحك إياها هذا التحرر. وصار لديك كذلك فكرة — بكل أسفٍ — عن حقيقة أن للروح قيودًا تُكبِّلها. إذا شئت أن تتواصل مع مَنْ فارقتهم، أنصحك بشدة أن تُرجئ سعيك هذا وتغادر هذا المكان الذي لن ينتابك فيه سوى شعورٍ بالهمِّ والألم. تعالَ معي وتعرَّف على حياتك الجديدة.»

قال برنتون: «أنا في حُلمٍ وأنت جزءٌ منه. لقد خلدت إلى النوم الليلة الماضية وما زلت أحلم. هذا كابوس مزعج وسينتهي قريبًا.»

قال الغريب: «إنما تقول ذلك لإقناع نفسك. لقد تبيَّن لك الآن أن ما أنت فيه ليس حُلمًا. إن صحَّ أن هناك أحلامًا، فما فارقته كان هو الحُلم، أما الآن فأنت مستيقظ. إذا كنت تعتقد حقًّا أنه حلم؛ فافعل ما أمليه عليك وتعالَ معي وغادره؛ فلا مفر من أن تقر بأن هذا الجزء من الحلم — على أقل تقدير — ثقيل على النفس.»

وافقه برنتون: «إنه ثقيلٌ حقًّا على النفس.» أثناء حديثه، أقبل الخدم مرتبكين وهرولوا لأعلى وحملوا سيدتهم الغائبة عن الوعي ووضعوها على أريكة. بدءُوا في تدليك يديها ونثر الماء على وجهها. فتحت عينَيها ثم ما لبثت أن أغمضتهما مرةً أخرى وهي ترتجف.

ثم بدأت في البكاء: «سارة، هل أنا في حُلمٍ أم أن سيدك قد مات فعلًا؟»

شحب وجه الفتاتَين في هذه اللحظة ودلفت كبراهما بشجاعة إلى الغرفة التي تركتها سيدتها منذ قليل. كانت هذه الفتاة الشابة تبدو متمالكةً نفسها جيدًا، ولكنها خرجت من الغرفة تنتحب ومئزرها يحجب عينيها.

قال الغريب الذي يقف بجوار برنتون: «انهض وتعالَ معي، ألا يكفيك كل هذا؟ تعالَ معي وبإمكانك العودة إلى هذا المنزل إذا شئت.» فخرجا معًا من الغرفة إلى نسمات الهواء المنعش لصبيحة يوم الميلاد. ولكن رغم معرفة برنتون بأن الهواء لا بد أن يحمل نسماتٍ باردة؛ لم يكن يشعر بالبرد ولا بالدفء.

استرسل الغريب قائلًا: «توجد مجموعةٌ منَّا، تتناوب على مراقبة أي إنسان وهو طريح الفراش على أعتاب الموت، وحالما تفارق الروح جسده يأتي دورنا لنكون له عونًا على توضيح الأمر أو التخفيف عنه أو مواساته. لكن موتك باغتنا لدرجة أنه لم يسبق إنذارنا به. هل صحيح أنك لم تكن مريضًا قبل الليلة الماضية؟»

أجابه برنتون نافيًا: «على الإطلاق، كنت في أحسن حال حتى بعد أن تناولت العشاء الليلة الماضية.»

«هل سوَّيت أمورك إلى حدٍّ مقبول؟»

أجابه برنتون محاولًا استعادة ذاكرته: «أجل، أعتقد أنهم سيجدون كل شيء على أتم وجه.»

سأله هذا الغريب: «أخبرني قليلًا عن قصتك إن لم يكن لديك مانع؛ فسوف تساعدني في محاولتي لإطلاعك على نظامنا الجديد الذي تسير عليه الأمور هنا.»

أجابه برنتون متعجبًا من انسياقه بهذه السهولة وراء افتراض هذا الغريب بأنه قد فارق الحياة: «حسنًا، كنت شخصًا ممن يصفه أهل الأرض بأنه ميسور الحال. تبلغ قيمة

ممتلكاتي ١٠٠٠٠٠ دولار. استثمرت ٧٥٠٠٠ في التأمين على حياتي، إذا سُدِّد هذا المبلغ كله، فسوف يحقق ربحًا لأرملتي لا يقل عن مائتي ألف دولار.»

قال الآخر: «منذ متى وأنت متزوج؟»

«منذ قرابة ستة أشهر. تزوجت في يوليو الماضي ثم سافرنا في رحلةٍ إلى الخارج. عُقِدت مراسم زواجنا في أجواء هادئة وسافرنا بعدها مباشرة؛ ولهذا ظننا عند عودتنا أنها لن تكون فكرةً سيئةً إذا أقمنا مأدبة عشاء عشية عيد الميلاد ودعونا بعض أصدقائنا. كان ذلك ...» تردد لحظةً ثم استكمل حديثه: «في الليلة الماضية. بعد فترة قصيرة من العشاء بدأت أشعر بأنني متعب قليلًا ثم صعدت لأعلى لأستريح لبعض الوقت، وإذا صحَّ ما تقول، فإن أول شيء عرفته أنني وجدت نفسي ميتًا.»

صحَّح له الغريب: «تقصد حيًّا.»

«حسنًا، وجدت نفسي حيًّا مع أني في اللحظة الحالية أشعر بانتمائي للعالم الذي تركته أكثر من العالم الذي يبدو أنني فيه الآن. لا بد من الاعتراف بأنني أتحدث إلى رجل مقبول ومهذب، لكنني أتوقع في أي لحظة أن أفيق وأكتشف أنني كنت بصدد كابوس لم يصادف حظي السيئ ما هو أكثر ترويعًا منه.»

ابتسم الشخص الآخر.

«ثمة خطر محدود للغاية من إفاقتك كما تُسميها. سأخبرك الآن بالمشكلة الكبرى التي تواجهنا مع المستجدين على أرض الأرواح، ألا وهي دفعهم إلى نسيان العالم الذي خلَّفوه وراءهم تمامًا. الرجال الذين تركوا وراءهم أُسرًا في ظروف يُرثى لها، أو الرجال الذين تركوا شئونهم في وضعٍ مضطرب يجدون صعوبةً شديدةً في أن ينْأَوا بأنفسهم عن محاولة إعادة الأمور إلى نِصابها الصحيح. يحركهم شعورٌ بأنهم قادرون على المواساة أو التخفيف عمَّن فارقوهم، ويستغرقون غالبًا وقتًا طويلًا قبل أن يقتنعوا بأن جهودهم جميعها تذهب سُدًى، بل لا يجني أحدهم منها سوى تكدير نفسه.»

سأله برنتون: «هل ينقطع الاتصال إذن بين هذا العالم وذلك الذي تركوه وراءهم؟»

تروَّى ذاك الغريب لحظةً قبل الرد.

ثم أجاب: «يصعُب عليَّ أن أخبرك بأنه لا يوجد أي اتصالٍ بين عالمٍ وآخر، ولكن إذا كان ثمة اتصال، فهو طفيف لا يفي بالغرض، وإذا كان لك حظٌّ من رجاحة العقل؛ فسترى الأمور بعين مَن يفوقونك خبرةً في هذا العالم. يمكنك بالطبع العودة إلى هناك كلما تاقت نفسُك إلى ذلك دون أحد يعترضك أو عقبة تمنعك. لكن عندما ترى الأحداث تسير في غير

اتجاهها وترى أخطاءً على وشك أن تُرتكب، فسيفزعك حينها أن تقف هناك مكتوف اليدين عاجزًا عن التأثير فيمن تحب، أو الإشارة إلى خطأ واضح لك وإقناعهم بأن رؤيتك التي هي أكثر شفافيةً عنهم ترى هذا خطأً. أتفهَّم بالطبع أن المسألة لا بد أنها صعبة للغاية على رجلٍ حديث الزواج أن يفترق عمَّن أحبته وأحبها. لكن أؤكد لك إذا تتبعت حياة سيدة شابة وجميلة كزوجتك، حتمًا ستجد شخصًا آخر يسقيها سُلْوانًا تعجز أنت عن أن تمنحها إياه. وستفضي بك مثل هذه المهمة إلى كنيسةٍ تقترن فيها بزوجها الثاني. ويؤسفني أن أقول إن حتى أكثر الأرواح المطمئنة تنزعج أمام مثل هذا الحدث. الحكماء وحدهم هم من يُقدِّرون ويتفهَّمون أنهم في عالمٍ جديد كليًّا بقدراتٍ جديدة وقيود لم تكن أمامهم مِن قبل، وهم مَن يتحكمون بأنفسهم من البداية بناءً على ذلك، مثلما سيفعلون حتمًا فيما بعد.»

رد برنتون بلهجة غاضبة شيئًا ما: «سيدي المبجَّل، إذا صحَّ ما تقوله بأنني حقًّا رجل ميت …»

صحح الرجل الآخر: «حيٌّ.»

«لا بأس، حيٌّ إذن. اسمح لي أن أخبرك بأن قلب زوجتي منفطر حزنًا. ولن تتزوج مطلقًا مرةً أخرى.»

«بالتأكيد هذا أمر أنت أعلم به منِّي. كل ما أنصحك به بشدةٍ هو ألا تراها مجددًا. يستحيل عليك أن تُسلي أحزانها، ولن تجلب لنفسك سوى التعاسة برؤيتها بائسةً حزينة. لذلك، خذ بنصيحتي. لقد أسديتها لك كثيرًا، وأؤكد لك أن مَن أعرض عنها مِن قبل؛ ندم فيما بعد. ابقَ بعيدًا تمامًا عن كل ما يربطك بحياتك السابقة.»

التزم برنتون الصمت لعدة لحظات ثم قال:

«أظن أن نصيحتك نابعة من نواياك الحسنة، لكن إذا كانت الأمور تبدو كما ذكرت، فلن أعدل عن رأيي ولا أنوي الأخذ بها.»

«لك الأمر كله، هذه تجربة يفضل كثيرون أن يخوضوها بأنفسهم.»

سأله برنتون سؤالًا بدا نابعًا من رغبته في تغيير موضوع الحديث: «هل لكم أسماء هنا في أرض الأرواح؟»

أجاب: «أجل، نُعرَف بأسمائنا التي استخدمناها في المرحلة الإعدادية في الحياة الدنيا. اسمي فيريس.»

«وإذا أردت العثور عليك هنا، فكيف لي أن أتصرف؟»

أجابه فيريس: «يكفيك التمني. تمنَّ فقط أن تصبح معي، وستصبح حينها معي بالفعل.»

صاح برنتون في دهشة: «يا إلهي! هل التنقل بهذه السهولة؟»

«التنقل من مكانٍ لآخر سهل للغاية، بل لا يوجد ما هو أسهل منه، وفي ظني لا مجال لأن يكون أفضل من ذلك.»

«هل ثمة أمور هنا تعتقد أنها يمكن أن تكون أفضل؟»

«أفضِّل ألا أُدليَ برأيي في ذلك. ربما سيصبح بإمكانك أن تُدليَ برأيك في ذلك قبل أن تُمضيَ وقتًا أطول بكثير هنا.»

قال برنتون: «بالنظر إلى الأمر نظرةً عامة، هل يوجد في ظنك مَن يُؤثِر أرض الأرواح على العالم الذي تركناه؟»

أجابه فيريس: «تروقني الحياة هنا أكثر، لكن هذا لا ينفي اعتقادي بأن ثمة أشخاصًا لا تروقهم الحياة هنا. توجد مزايا عديدة، لكن ثمة الكثير من العيوب أيضًا، وإن كنت لا أفضل أن أسميها هكذا، لكن ما زال البعض يعُدها عيوبًا. نحن نتحرر من الشعور بألم الجوع أو البرد، ومِن ثمَّ لا حاجة لنا إلى المال في شيء، ولا داعي يجبرنا على العجلة والقلق كما كنَّا في الدنيا.»

قال برنتون: «ماذا عن الجنة والجحيم؟ أهما مكانان من وحي الخرافات والأساطير؟ ألا يوجد ثواب وعقاب على أرض الأرواح؟»

لم تأتِه إجابة عن هذا السؤال، وحين التفت برنتون حوله وجد رفيقه قد غادره.

الفصل الثالث

انهمك ويليام برنتون في تأمل موقفه مليًّا. كان سيعرف كيف يتصرف لو كان على يقين تام أنه لم يعُد ضحية حُلمٍ. بيد أن شيئًا واحدًا لا يعتريه شكٌّ ألا وهو أنه يشق على النفسِ أن ترى ما رآه في منزله. وحدَّث نفسه بأنه إذا كان موته واقعًا محققًا، أليست الخطة التي رسمها له فيريس هي السبيل الأكثر حكمةً ليسلكه؟ وقف برنتون في أحد الشوارع التي اعتاد التردد عليها. كان الناس — رجالًا ونساءً ممن عرفهم في حياته — يمرون به مرةً والأخرى فيتجاوزونه دون أن تبدو على أحدهم أمارة تدل على رؤيتهم له. عزم على أن يحل المشكلة التي استحوذت على تفكيره إن أمكن، وأن يعرف إذا كان بإمكانه التواصل مع أحد سكان العالم الذي رحل عنه. توقف للحظة حتى يفكر في الطريقة المُثلى لبلوغ غايته. ثم جال في خاطره أحد أصدقائه المقربين إليه والناصحين له، وتمنى في الحال أن يذهب إليه في مكتبه. لكنه وجده مغلقًا، فقرر أن يدخل وينتظره. ظل يشغل وقته في التفكير في وضعه المريب إلى أن وجد نفسه انتظر طويلًا، وحين سمع دق الأجراس، تذكر حينها فقط أن نهار يوم عيد الميلاد أوشك على الانتصاف، وأن صديقه قد لا يحضر إلى المكتب هذا اليوم. ثم تمنى بعدها أن يذهب إلى منزل صديقه، لكن لم تفلح مساعيه؛ فلم يجده في المنزل مثلما لم يجده في المكتب. لكن في المنزل، سادت حالة من الهرج والمرج، فاستمع لما يدور من حديثٍ داخله، فوجد أن موضوع الحديث هو موته، وعلِم أن صديقه قصد منزل برنتون حالما بلغ مسامعه هذا الخبر المفزع صبيحة يوم عيد الميلاد.

توقف برنتون مرةً أخرى ولم يعرف ماذا بوسعه أن يفعل. توجَّه إلى الشارع مجددًا، وكان كل شيء يدفعه إلى التوجُّه إلى منزله. ورغم أنه أعرب لفيريس أن لا نية لديه للأخذ بنصيحته، بدا له — كرجلٍ حكيم — أن تحذير فيريس جدير أن يؤخذ في الحسبان، ولو

استطاع أن يقتنع لمرةٍ أن لا سبيل للتواصل بينه وبين من رحل عنهم، ولو عجز عن أن يُخفف عنهم ويُدخل السرور على قلوبهم، ولو رأى أشياء حُجِبت عن إدراكهم ولكنه عجز عن تحذيرهم منها، فلن تزداد نفسه سوى تعاسة على تعاستها دون أن يُخفف عن الآخرين العناء.

تمنَّى لو يعرف أين يجد فيريس لتسنح له الفرصة مرةً أخرى بالحديث معه؛ فقد أبهرته حكمته البالغة. ولكن سُرعان ما وجد نفسه بجوار السيد فيريس ما إن تمنَّى رفقته.

قال في ذهول: «يا إلهي! أنت تحديدًا مَن أردت رؤيته.»

قال فيريس: «بالضبط؛ ولهذا تراني.»

تابع الآخر: «كنت أفكر فيما قلته لي وخطر لي أن نصيحتك راجحة برغم كل شيء.»

رد فيريس وقد علا وجهه ما هو أشبه بالابتسامة: «أشكرك.»

«لكن أمرًا واحدًا أريد أن أصل فيه إلى قناعة ثابتة داخلي. أريد أن أعرف ما إذا كان يمكن التواصل مع أصدقائي. لا شيء سيُسكت صوت الشك في عقلي سوى التجربة الفعلية.»

سأل فيريس: «أولم تكفِك التجربة التي خضتها؟»

ردَّ برنتون بنبرة مترددة: «حسنًا، مررت بتجارب لا بأس بها، لكن يُخيَّل لي أنني في حال مقابلة صديقٍ قديمٍ لي، قد أُشعِره بوجودي بطريقةٍ ما؟»

أجاب فيريس: «في هذه الحالة، إن لم يقنعك شيءٌ غير التجربة الفعلية، فلِمَ لا تذهب إلى بعض من أصدقائك القدامى وتبذل معهم ما في وسعك؟»

«ذهبت لتوي إلى مكتب أحد أصدقائي القدماء ثم إلى منزله. وفي منزله علمت أنه قصد ...» صمت برنتون لبرهةٍ ثم واصل حديثه: «منزلي السابق. يبدو أن كل ما حولي يدفعني دفعًا إلى هناك، ولكن إذا أخذت بنصيحتك، فعليَّ إذن أن أتحاشى ذلك المكان بالذات دون كل الأماكن الأخرى.»

قال فيريس: «لو كنت مكانك لفعلت الآن. لكن ما يمنعك أن تحاول مع أي من السائرين حولك؟»

نظر برنتون حوله. وجد أناسًا يمرون جيئةً وذهابًا بالمكان الذي وقفا يتحدثان فيه معًا. لم تكف الشفاه عن تبادل عبارات التهنئة. وفي نهاية المطاف، قال برنتون بنظرة متحيرة على وجهه:

«يا رفيقي، لا يمكنني أن أتوجه بالحديث إلى أي منهم. فأنا لا أعرفهم.»

ضحك فيريس وقال له:

«لا أظن أنك ستصدمهم كثيرًا جرب فقط.»

«جيد، ها هو ذا صديق أعرفه. انتظر هنا لحظة، سأقترب منه وأتحدث معه.» ومع اقتراب برنتون منه بسط يديه وتحدث، لكن ذلك الشخص السائر لم يعِره انتباهًا. ومر وكأنه لم يرَ أو يسمع شيئًا.

بادره فيريس بعد أن لمس أمارات الإحباط على وجهه: «أؤكد لك أن الأمر لن يختلف عن سابقه، مهما حاولت. وكما تعرف تلك المقولة القديمة التي تذكِّرنا بأن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه. ليس بوسعك أن تجمع بين كل ما يميز هذا العالم وذلك العالم الذي فارقته. وفي رأيي، عمومًا، أنك يجب أن تريح بالك وتَقنع بما أنت فيه، على الرغم من أن الراحلين عن العالم الآخر دائمًا ما كانوا يتألمون حين انقطعت بهم أسباب التواصل مع أصدقائهم، لكن على الأقل تضمن لهم السعادة في عالمهم الحالي.»

رد برنتون: «يبدو لي أن في ذلك عزاءً كبيرًا لَمن لا يزالون هنا ومَن رحلوا عنه.»

أجاب الآخر: «حسنًا، لا أعرف. في النهاية، ماذا تمثل الحياة في العالم الآخر؟ ما هي إلا مجرد مرحلة إعداد لننتقل إلى هذا العالم. لا تدوم إلا لفترةٍ قصيرة إذا قورنت بالحياة التي نعيشها هنا لدرجة تجعلها لا تستحق العناء لأن نتصادم معها بطريقةٍ أو بأخرى. كلما طال بك العمر هنا مثلي، تكشَّفت لك هذه الحقيقة.»

تنهَّد برنتون وقال: «ربما أدرك ذلك يومًا ما. لكن في تلك اللحظة، ماذا أفعل بنفسي؟ أشعر وكأني رجل أمضى حياته كلها في عمل ونشاط لا ينقطع، ثم قرر دون مقدماتٍ أن يستمتع بفعل لا شيء. وهذا الأمر يكاد يقضي على عدد لا بأس به من الرجال، لا سيما إذا أرجئُوا قرار استراحتهم من العمل حتى مرحلة متأخرة من العمر كما يفعل أغلبنا.»

قال فيريس: «حسنًا، لا يوجد ما يضطرك للبقاء دون عمل. لكن قبل أن تشرع في أي عمل يشغلك، دعني أسألك إذا كان ثمة مكان ممتع في العالم تستهويك زيارته؟»

«بالتأكيد؛ فلم أحظَ إلا بزيارة أماكن قليلة من العالم. وهذا مما أندم عليه وأنا أغادره.»

قال فيريس: «مدهش! لكنك لم ترحل عنه.»

«عجبًا! أظنك قلت إني ميت؟»

أجابه فيريس: «بالعكس، لقد أصررتُ أكثر من مرةٍ على أنك لم تبدأ الحياة إلا الآن. والآن، أين تحب أن نُمضيَ اليوم؟»

«ما رأيك في لندن؟»

«لا أظنه اقتراحًا مناسبًا؛ إن أجواء لندن تميل إلى الكآبة قليلًا في هذا الوقت من السنة. لكن، ما رأيك في نابولي أو اليابان، أو إن لم تكن لديك رغبة في الخروج من الولايات المتحدة، ما رأيك في الذهاب إلى متنزه بلوستون؟»

سأله برنتون متشكِّكًا: «هل لنا أن نصل إلى تلك الأماكن قبل أن ينقضي اليوم؟»

«حسنًا، سأوضِّح لك قريبًا كيف نتمكن من كل ذلك. ليس عليك سوى أن تتمنَّى مرافقتي وسأصحبك طوال الطريق.»

قال برنتون: «ماذا عن مدينة فينيسيا؟ لم أرَ حتى نصف هذه المدينة كما أردت.»

أجاب رفيقه: «فكرة جيدة. لنذهب إلى فينيسيا.» وأخذت المدينة الأمريكية التي كانا يقفان فيها تختفي بعيدًا عنهما، وقبل أن يستوعب عقل برنتون ما يحدث وجد نفسه يسير مع رفيقه في ميدان سان مارك.

قال برنتون: «سفر لا أسرع منه يفوق أي تصور خطر بذهني، لكنه يؤصِّل داخلي الشعور بأنني في حُلم.»

أجاب فيريس: «ستعتاد قريبًا على التنقل هكذا وحينها ستتجلَّى لك وسائل السفر التي أرهقتنا في الدنيا بحجمها الصحيح.» ثم صاح فيريس قائلًا: «مرحبًا! أقدِّم لك رَجلًا يسرني أن تقابله. بالمناسبة، لا أعرف اسمك أو نسيته.»

رد برنتون: «ويليام برنتون.»

«سيد سبيد، يسعدني أن أقدم إليك السيد برنتون.»

رد السيد سبيد بلطف: «آها، وافد جديد. ضحية من ضحاياك يا فيريس؟»

رد برنتون: «بل قل أحد تلاميذه.»

قال السيد سبيد: «حسنًا، لم يختلف الأمر كثيرًا. منذ متى وأنت معنا؟ وهل أعجبك البلد هنا؟»

قاطعه فيريس: «كما تلاحظ يا سيد برنتون، لقد كان جون سبيد رجلًا من رجال الصحافة، ولا بد أن يسأل الغرباء عن مدى إعجابهم بالبلد. كان يسأل كثيرًا عن رأي الأجانب عند إجراء حوارٍ معهم لصالح الجريدة التي كان يعمل بها لدرجة أنه لا يستطيع أن يكف عن طرح سؤاله المعتاد. لقد انضم السيد برنتون إلينا ولكن منذ فترةٍ قصيرة ...» ثم واصل فيريس حديثه: «كما تعرف يا سبيد، من الصعب أن تتوقع منه أن يجيب عن هذا السؤال الذي لا يمكن الفرار منه.»

وجَّه سبيد سؤاله إلى برنتون: «من أين أنت تحديدًا؟»



في فينيسيا.

أجابه برنتون وهو يشعر كأنه سائح أمريكي يجوب قارة أوروبا: «سينسيناتي.»

«من سينسيناتي حقًّا؟ أهنئك. لا أعرف مكانًا آخر لأموت فيه قريبًا — كما يقولون — غير سينسيناتي. كما ترى فأنا من شيكاجو.»

لم يُعجب برنتون بالروح الهزلية التي بدا بها ذلك الصحفي، واستغرب أنه انتبه أن في عالم الأرواح هناك أشياء تعجبه وأخرى لا تعجبه مثل حاله على الأرض.

قال برنتون دون أن يبديَ رأيه صراحة: «شيكاجو من المدن الممتعة والمليئة بالمغامرات.»

رد عليه سبيد بلهجةٍ جادة: «بل شيكاجو يا عزيزي هي الأولى والوحيدة. سترى بعينك أن شيكاجو ستصبح أعظم مدينة في العالم قبل أن تصل إلى المائة من عمرك. على أي حال يا سيد فيريس ...» ثم بدا وكأنه تذكر شيئًا فجأة: «لقد جئت بسومرز برفقتي هنا.»

قال فيريس «آها! هل تسدي له معروفًا؟»

«أجل، أيها الصغير العزيز، حسبما أعتقد.»

قال فيريس: «ربما يهتم السيد برنتون بمقابلته. أظنك يا برنتون قد سألتني مِن قبلُ إذا كان هناك أي جحيم أو عقاب هنا. السيد سبيد يمكنه أن يريك رجلًا في الجحيم.»

سأله برنتون «أحقًّا هذا؟»

أجابه سبيد: «أجل، لو اجتمع البؤس في شخصٍ واحد، فسيكون هو حتمًا. هذه هي مشكلة سومرز. حسنًا، مات سومرز متأثرًا بمرض الهذيان الارتعاشي، وبالطبع تعرف كيف كان يبدو الأمر. ظل سومرز يعاقر ويسكي شيكاجو طيلة خمسة وثلاثين عامًا دون انقطاع، ولم يكن يخففه مطلقًا بماء شيكاجو المثير للاشمئزاز. أظنك تعرف كيف أصبحت حالته الجسدية والعقلية. سعى كثيرون لإصلاح حال سومرز؛ لأنه كان رجلًا ذكيًّا حقًّا، لكن لم تفلح محاولاتهم. أصبح العطش مرضًا ملازمًا له حتى بات يعاني من أثر هذا المرض على عقله، بالرغم من أن احتياجه جسديًّا لم يَعُد له وجود بالطبع. قد يهب سومرز مستقبله كله مقابل كأسٍ واحدة من ويسكي كنتاكي المعتق. يتأمله على طاولات البيع ويظل يشاهد رجالًا يتلذذون بشربه وهو واقف بجوارهم بنفسٍ معذَّبة. لهذا أتيت به إلى هنا. حسِبت أنه لن يرى لون الويسكي وهو يلمع في الكأس، لكنه الآن في مقهى كوادرا يشاهد رجلًا وهو يشرب. قد تجدونه جالسًا هناك بوجه يشع حسرةً على عجزه عن إشباع رغبته.»

سأله برنتون: «وماذا تفعل مع رجل مثله؟»

«أفعل؟ حقيقة، ليس هناك ما يمكن فعله معه. لقد أبعدته عن شيكاجو على أمل أن أخفف متاعبه قليلًا، لكن لم يأتِ ذلك بنتيجة تُذكر معه.»

قال فيريس بعدما لاحظ نظرات تأثر على وجه برنتون: «سيصبح أفضل قريبًا. هذه فترة إصلاح عليه أن يمر بها وستنتهي. ما يمر به ليس إلا معاناته وآلامه التي كان سيعانيها على الأرض لو حُرِم فجأةً من مُسكِراته المفضلة.»

ختم سبيد كلامه قائلًا: «حسنًا، ألن تأتيَ معي إذن؟ لا بأس، إلى اللقاء. أتمنَّى أن ألقاك مجددًا يا سيد برنتون.» وعندئذ تفرَّقوا.

قضى برنتون يومين أو ثلاثة أيام في فينيسيا، لكن حنينه إلى منزله القديم كان يلازمه طوال الوقت. اشتاق لسماع أخبار عن سينسيناتي. أراد العودة إلى هناك، وأخذته أمنيته إلى هناك عدة مرات، ولكن ما يلبث أن يعود في الحال. وفي النهاية قال لفيريس:

«أنا متعب. لا بد أن أذهب إلى المنزل. لا بد أن أرى كيف تسير الأمور.»



«لم أكن لأفعل ذلك لو كنت مكانك.»

«بلى، أعرف أنك لم تكن لتفعل ذلك. فاللامبالاة طبعك. أفضِّل أن أكون تعيسًا على علمٍ بما يجري على أن أكون سعيدًا متجاهلًا لمن حولي. إلى اللقاء.»

في المساء، وجد نفسه في مدينة سينسيناتي. كانت الأجواء مشرقةً صافيةً تغلب عليها البرودة. عند وصوله إلى المدينة التي يُطلِق عليها وطنه، كانت أقدام الرجال تصدر صوتًا عند سيرهم على الرصيف المكسو بالثلج، وتبدو الشوارع بإطلالتها البهية التي اعتادت أن تستقبل المسافرين بها عند عودتهم إليها. أما بائعو الجرائد فكانوا يهرولون في الشوارع يصيحون بأعلى صوتٍ لديهم لترويج صحفهم. سمع أصواتهم لكنه انتبه قليلًا.

«تفاصيل حادثة القتل! آخر الأخبار! تفاصيل قضية التسمم!»

شعر أنه لا بد أن يلقي نظرةً على الصحيفة؛ لهذا دخل مكتبًا في أحد الفنادق ووجد رجلًا يقرأ إحدى الصحف، ثم لمح من أعلى كتفيه الصفحة التي يفتحها أمامه، وأصابه الذعر لِما رأى من كلمات مفجعة تصدَّرت العناوين الرئيسية في الصحف:

مقتل برنتون

تشريح الجثة كشف أن المورفين هو السم المستخدم

العثور على ما يكفي لقتل عشرات الرجال

القبض على زوجة السيد برنتون لارتكابها الجريمة المروِّعة.

الفصل الرابع

للحظة، أصاب برنتون ذهول ودهشة من عناوين الصحف المفجعة التي قرأها لدرجةٍ أفقدته القدرة على إدراك ما حدث. على الرغم من أن خبر موته مسمومًا بث فيه شعورًا غريبًا، فلم يسترعِ انتباهه إلى هذا الحد الذي كان متوقعًا. ما يدعو إلى العجب أن صدمته ازدادت عندما وجد نفسه مثار حديث المدينة ومحور ضجة صحفية كبرى. لكن الأمر الذي أفزعه هو إلقاء القبض على زوجته بتهمة قتله. ألحَّت عليه نفسه في البداية من أجل الذهاب إليها في الحال، ثم هداه تفكيره إلى أنه من الأفضل قراءة ما نشرته الصحيفة عن هذا الموضوع حتى يصبح مُلمًّا بالحقائق كلها. حدَّث نفسه بأن عناوين الصحف كثيرًا ما تُبالغ في عرض الموضوعات، وربما لا يدعم صُلب المقال ذلك الخبر المذكور أعلاه. ولكن كلما واصل القراءة؛ بدا الموقف مفزعًا أكثر وأكثر. وجد أن أصدقاءه ساورتهم الشكوك في موته المفاجئ، وأصروا على تشريح جثته. تعهَّد بتشريح الجثة ثلاثة من أبرز الأطباء في مدينة سينسيناتي، وأجمع الثلاثة على أن المتوفَّى — بلغةِ هيئة المحلَّفين — قد وافته المنية إثر تسممه بالمورفين، وأصدرت هيئة القضاة المحققين في أسباب الوفاة حكمها بأن «المدعو ويليام برنتون قُتل مسمومًا على يد شخصٍ مجهول.» ثم استطرد المقال في توضيح كيف انغلقت دائرة الشك تدريجيًّا على زوجته، وعليه صدر قرار بإلقاء القبض عليها. ثم أُلقي القبض عليها في ذلك اليوم.

ما إن قرأ برنتون هذا القرار، حتى شعر بغصة موجعة. تخيَّل زوجته الرقيقة الجميلة في زنزانة حجرية في سجن المدينة. توقَّع أهوال المحاكمة العلنية على نفسها والحزن والألم العميقين اللذين قد يصيبان مثل هذه السيدة المثقَّفة والراقية من تعليقات الصحيفة على القضية. وبكل تأكيد، لم يساور برنتون في قرارة نفسه أدنى شكٍّ في نتيجة المحاكمة. سوف



السيدة برنتون.

تُبرَّأ من هذه التهمة. لكن الأمر لن يختلف في النهاية؛ لن يعوضها الحكم النهائي لهيئة المحلفين عن القلق الرهيب الذي لا بد أنها تعاني منه الآن.

اتجه برنتون في الحال إلى السجن وراح يجول عبر ذلك المبنى الكئيب من أوله إلى آخره بحثًا عن زوجته. ثم وجدها أخيرًا لكن داخل غرفة مريحة للغاية في مقر سكن المأمورين. الخوف والمحاكمات التي مرَّت بها خلال الأيام القليلة الماضية جعلها تبدو أكبر سنًّا بما لا تخطئه العين، ومزَّق قلبه التفكير في أنه واقف أمامها عاجزًا، وقد انقطعت به السبل كلها عن تطييب خاطرها بكلماتٍ تفهمها. بدا عليها واضحًا أثر دموع الحسرة التي ذرفتها منذ صباح عيد الميلاد المشئوم، ولم تكن الهالات السوداء تحت عينيها الجميلتين إلا دليلًا على الليالي التي هجر النومُ فيها عينيها. جلست على كرسي وثير بمسندين في مواجهة النافذة، تتطلع منها شاردةً في منظر الشتاء الموحش بالخارج، وعيناها تبدوان وكأنهما لا تريان

شيئًا. كانت يداها مستقرتين على حجرها، ومن حينٍ لآخر تلتقط أنفاسها بطريقة بدت في جزء منها نحيبًا وفي الجزء الآخر لهاثًا.

دخل المأمور بعد قليل إلى الغرفة.

قال: «سيدة برنتون، يوجد سيدٌ هنا يرغب في مقابلتك. أخبرني بأنه صديقٌ قديمٌ لكِ اسمه السيد رولاند. هل تودين مقابلة أي زائر؟»

أدارت زوجة السيد برنتون رأسها ببطءٍ ثم نظرت إلى المأمور للحظة وكأنها لم تفهم ما قاله. وأجابته في النهاية في شرود:

«رولاند؟! أوه، ستيفن! أجل، تسرني مقابلته كثيرًا. اسمح له بالدخول من فضلك.»

دخل ستيفن رولاند بعدها مباشرة، ونوعًا ما لم يلقَ قبولًا لدى الرجل الخفي الواقف بينهما مجيء السيد رولاند لمواساة السيدة برنتون.

بدأ رولاند حديثه إليها: «عزيزتي السيدة برنتون، أتمنى أن تكوني بحالٍ أفضل اليوم. استجمعي قوتك وكوني شجاعة. لم يعد سوى القليل. لقد وكلت المحامين الجنائيين البارزين، بنهام وبراون، للدفاع عنكِ. لا يمكنكِ الاستعانة بأفضل منهما.»

ما إن تفوَّه رولاند بكلمة «جنائيين»، حتى ارتعدت أوصال زوجة السيد برنتون.

جلس رولاند جاذبًا كرسيه بالقرب منها ثم أكمل حديثه: «أليس، أخبريني بأنك لن تفقدي شجاعتك. أريدك شجاعة، من أجل أصدقائك.»

ضم رولاند يديها المرتخيتَين في يده دون أن تحاول سحبهما.

اجتاح برنتون شعور بغضبٍ عارم عندما رأى هذا التصرف من جانب رولاند.

كان رولاند أحد الراغبين في الزواج من صاحبة اليد التي يحتضنها بين يديه الآن، ولكن لم يكن الحظ حليفه. ورأى برنتون أن أقل ما يقال إن من تَدنِّي الأخلاق أن يستغل رولاند الآن موقفها المريع ليتودد إليها.

كان الطريق الأقرب للشجار بين برنتون وزوجته خلال حياتهما الزوجية القصيرة التي لم تدم إلا لستة أشهر هو أمر ذلك الرجل الذي يحمل يديها بين يده. ضجر برنتون من التفكير في أن تلك السيدة بشخصيتها الفطِنة، وفطرتها التي تميِّز بها الصواب من الخطأ، لم تسعفها بديهتها لكي تكتشف شخصية هذا الرجل الذي كانا يتشاجران بسببه، لكن المرأة لا ترى أبدًا أن وقوع رجلٍ في حبها جريمة مهما كان رأي زوجها فيه.

همهمت السيدة المسكينة وطفقت دموعها تنهمر من عينيها: «الأمر مريع! مريع! مريع.»

قال رولاند: «الأمر بالطبع مريع، وما يجعله مريعًا على وجه الخصوص هو توجيه الاتهام إليك بهذه الجريمة المزعومة، من بين جميع الناس على وجه الأرض. لا أعتقد من جانبي أنه مات مسمَّمًا على الإطلاق، ولكن قريبًا سنعيد الأمور إلى نصابها الصحيح. سيترك بنهام وبراون أي قضية معهما ليكرِّسا كل اهتمامهما لهذه القضية حتى تنتهي. وكل شيء يُنجز بالمال أو الأصدقاء سنقوم به، وكل ما نطلبه هو أن تستجمعي شجاعتك، ولا تنكسري أمام البشاعة الظاهرية لهذا الموقف.»

بكت السيدة برنتون في صمت، ولم تُعقِّب. لكن بدا واضحًا أن حضور هذا الزائر وكلماته قد أثلجا صدرها. لغرابة الموقف، انزعج برنتون انزعاجًا شديدًا، رغم أنه ذهب إليها وفي أعماقه يريد أن يطيِّب نفسها ويخفف عنها. وكل المرارة التي كان يشعر بها ضد منافسه السابق أُحييت بداخله من جديد، وازدادت ثورته لعجزه عن التعبير عنها. ثم عاد بذاكرته إلى نصيحة فيريس المشئومة بأن يترك وراءه كل شيء في ذلك العالم الذي رحل عنه. شعر أنه لم يعُد باستطاعته أن يطيق أكثر من ذلك، وفي اللحظة التالية وجد نفسه مرةً أخرى في شوارع سينسيناتي الباردة.

ظل اسم المحاميَين، بنهام وبراون، يتردد في ذهنه إلى أن قرر أن يذهب إلى مكتبهما ليسمع، إن أمكن، الترتيبات التي أُعدت للدفاع عن السيدة التي يعلم بأنها بريئة. عند وصوله إلى مكتب هذين المحاميَين البارزَين وجدهما مجتمعَين في غرفتهما الخاصة، وعندما دخل إلى هناك، وجدهما يتناقشان في القضية بمنتهى الهدوء والموضوعية التي يتسم بها المحامون المرموقون عند الحديث عن قضايا تتعلق بالحياة أو الموت.

كان بنهام يقول: «أجل، أعتقد أن ذلك هو أفضل خطٍّ للدفاع يمكن اللجوء إليه ما لم يظهر أي شيء جديد يقلب الموازين.»

سأل براون: «وماذا في ظنك قد يقلب الموازين؟»

«حسنًا، لا يمكنك أن تعرف أبدًا في مثل هذه القضايا. قد يجدون شيئًا آخر؛ قد يجدون السُّم، على سبيل المثال، أو العبوة التي تحتوي عليه. ربما سيتذكر أحد الصيدلانيين أنه باعه إلى هذه السيدة، ومِن ثمَّ، وبكل تأكيد، علينا حينها أن نغيِّر خططنا. لا أحتاج لأن أقول إن من الضروري لا محالة ألا نصرِّح بأي رأي مهما كان إلى الصحافة. ستمتلئ الصحف بالشائعات، وسيظل الوضع هكذا إذا لم نفصح بما في جعبتنا عن خطتنا للدفاع حتى يحين موعد نظر القضية.»

قال براون وهو الشريك الأصغر سنًّا: «ما زال علينا ألا نخسر زملاءنا من الصحفيين؛ سيحضرون إلى هنا بمجرد معرفتهم بأننا مَن سيتولى الدفاع في هذه القضية.»

«حسنًا، لا أشك في قدرتك على التعامل معهم بأسلوبٍ يجعلك تمنحهم شيئًا يكتبونه، من دون أن تفصح عن أي شيء لا نرغب في نشره.»

ردَّ براون بأسلوبٍ يعكس ثقته بنفسه: «أعتقد أنه بإمكانك أن تثق فيَّ وتوكل الأمر إليَّ.»

أجابه بنهام: «سأترك لك هذا الجزء من هذه المهمة برمته بين يديك. ومن الأفضل ألا تنقل الأخبار كاملةً أو تخلط بينها، وفي حال مجيء أحد الصحفيين لمقابلتي؛ فسأُحيله إليك. وسأخبره بأنني لا أعرف أي شيء عن القضية أيًّا كان.»

رد براون: «هذا جيد للغاية. والآن، فيما بيننا، ما رأيك في هذه القضية؟»

«هذه القضية ستُحدث ضجةً كبيرة. أظن أنها ستكون على الأرجح إحدى أكثر القضايا تداولًا من بين القضايا التي تعاملنا معها.»

«أوافقك الرأي، ولكن هل تعتقد أنها مذنبة أم بريئة؟»

قال بنهام بهدوء: «بالنسبة إلى هذه النقطة، ليس لديَّ أدنى شك. هي مَن قتلته.»

بينما قال بنهام ذلك، نسي برنتون نفسه للحظة واندفع إلى الأمام وكأنه سيشرع في خنق المحامي. بدا تصريح بنهام بأنه الجزء الأقبح من هذه الخيانة البشعة. ورأى برنتون أنه أمر مخزٍ أن يتقاضى هؤلاء الرجال أتعابًا من هذه السيدة نظير الدفاع عنها، وهم في الحقيقة يشاركون في قضية ولديهم قناعة بأن موكِّلتهم مذنبة.

قال براون: «أتفق معك. بالطبع هي الشخص الوحيد المستفيد من موته. لقد وهبها هذا الأبله الساذج كل شيء، وهي تعلم ذلك؛ وما فعله هو أمر مثير للعجب عندما تتذكر أنه على علمٍ بأن لها حبيبًا سابقًا قد كان سيُسعدها الزواج منه لو كان في ثراء برنتون. إن الحماقة المفرطة لبعض الرجال فيما يتعلق بزوجاتهم أمر في غاية البشاعة.»

أجابه بنهام: «أجل، هو كذلك بالفعل. لكن سأخبرك يا براون بأنها ليست امرأةً عادية. إن الفكرة وراء الجريمة لها طابع جديد لدرجةٍ تثير إعجابي الشديد بها. لا أتذكر أي حادثة مثلها في تاريخ الجرائم. إنها الطريقة الصحيحة التي ينبغي أن يرتكب بها قاتلٌ جريمته. كانت الطبيعة العامة التي أقيمت فيها المناسبة بمثابة مظلة واقية للجاني. تخيَّل أنك تُسمم رجلًا عند تناوله عشاءً أتى به بنفسه وسط عددٍ من الأصدقاء. أؤكد لك أن في الأمر لمسةً من الجرأة تجبرني على الإعجاب بها.»

«هل تظن في رأيك أن رولاند له علاقة بما حدث؟»

«كانت شكوكي تحوم حوله في البداية، لكن أظنه بريئًا، رغم أنه من منطلق معرفتي به، فلن يتردد الرجل في مشاركة مكاسب هذه الجريمة. وتذكَّر ما أقوله، سيتزوجان في غضون عام من الآن إذا ثَبَتت براءتها. فثمة قناعة داخلي أن رولاند يعلم أنها مذنبة.»

قال براون: «ظننت ذلك أيضًا من تصرفاته هنا وبعض التعليقات التي أبداها دون أن ينتبه إليها. على أي حال، مصداقيتنا في هذه القضية ستتضاعف إذا نجحنا في تخليصها من العقاب. نعم»، ثم واصل حديثه وهو ينهض دافعًا كرسيه للوراء: «زوجة السيد برنتون قاتلة.»

الفصل الخامس

وجد برنتون نفسه مرةً أخرى في شوارع سينسيناتي في حالٍ يصعب وصفه. جاهد نفسه لكي يتمالك غضبه وحزنه، وما زاد من هذه الانفعالات عجزه عن معرفة ما يجب أن يفعله أو ما الذي «كان» بوسعه أن يفعله. استثقل أن يعاود طلب النصيحة من فيريس؛ فلم يكن السبب في عنائه إلا تجاهله للنصيحة التي أسداها إليه ذلك الرجل النبيل. لم يكن يدري إلى أين يتجه في عالمه الجديد. ووجد نفسه يتساءل إذا كان هناك على أرض الأرواح مكتب محاماة يمكن أن يطلب استشارته، ثم تذكَّر كيف لم يكن له مثيلٌ في جهله بشروط الحياة في هذا العالم الذي ينتمي إليه الآن. لكنه شعر أنه لا بد من استشارة أحدٍ ما، وكان فيريس هو الشخص الوحيد الذي يمكن أن يقصده. بعد لحظةٍ وجد نفسه أمامه وجهًا لوجه.

قال برنتون: «سيد فيريس، أنا في كرب مفجع لم أعهده من قبل، وجئت إليك على أمل أن يكون بوسعك أن تنصحني على الأقل بما يجب أن أفعله، إن لم يكن بيدك أن تساعدني.»

أجابه فيريس بنبرةٍ ساخرة في صوته: «إذا كانت متاعبك بسبب اتباعك النصيحة التي أسديتها إليك بالفعل، فسأسعى جاهدًا، وبقدر استطاعتي أيضًا، أن أساعدك على الخروج مما أنت فيه.»

صاح برنتون قائلًا: «أنت تعلم جيدًا أن السبب في متاعبي كلها هو تجاهل نصيحتك أو، على الأقل، لأني تعمدت ألا أنصاع لنصيحتك. لم يكن بوسعي أن أعمل بها.»

قال فيريس: «عظيم للغاية. لست مندهشًا للضيق الذي أصابك. عليك أن تتذكر أن مثل هذه المحنة هي قصة قديمة معنا هنا.»

قال برنتون: «لكن، يا سيدي الفاضل، انظر إلى الوضع المُزري الذي تسير عليه الأحداث وإلى ما وصل إليَّ من أخبار. يبدو أنني قُتلت مسمومًا، ولكن بالطبع هذا الأمر لا

يشغلني. لا أشعر باستياء تجاه ذلك الدنيء الذي فعلها. لكن الأمر المفزع في ذلك هو أن زوجتي أُلقي القبض عليها بتهمة قتلي، وقد علمتُ لتوي أن المحاميَين الموكَّلَين لها لديهما قناعة بأنها هي الجانية.»

قال فيريس بهدوء: «تلك الحقيقة لن تتعارض مع مرافعتهما البليغة عند عرض القضية أمام المحكمة.»

نظر برنتون نظرةً غاضبةً إلى ذلك الرجل الذي كان يستقبل الأمور بهدوءٍ جم ونجح في إظهار عدم تعاطفه، لكن أدرك بعد لحظة أن لا طائل من الشجار مع الشخص الوحيد الذي يمكن أن ينصحه، ولهذا واصل حديثه، بكل ما أوتي من صبر:

«الموقف كالآتي؛ أُلقي القبض على زوجتي بتهمة قتلي. وهي الآن في حراسة المأمور. ما بها من عناء واضطراب هو أمرٌ بشع لا يمكن التفكير فيه.»

قال فيريس: «عزيزي، لا يوجد سبب يدفعك أنت أو غيرك إلى التفكير في الأمر.»

صاح برنتون ساخطًا: «كيف لك أن تتحدث بهذه القسوة؟ هل يمكنك أن ترى زوجتك أو أيًّا ممن تعرف محتجزًا في جريمة مريعة، وتظل هادئًا متماسكًا كما أنت عليه الآن وأنت تسمع مِحنة غيرك؟»

أجابه فيريس: «عزيزي، بالطبع ليس متوقعًا من شخصٍ ليس لديه سوى خبرة محدودة بهذا العالم أن يتمكن من موازنة أموره. يبدو عليك أنك تتحدث بنبرةٍ جادة للغاية. ولا يبدو أنك استوعبت التفاهة المطلقة لكل هذا على الإطلاق.»

صاح برنتون: «يا إلهي! أتعتبر امرأة حياتها مهددة بالخطر لجريمة لم ترتكبها مطلقًا تفاهة؟»

أجابه فيريس دونما أي تأثر بغضب رفيقه: «في حال براءتها، ستتكشف الأمور في المحاكم بلا شك، ولن يوجد سبيل لوقوع ضرر، حتى إن نظرت للأمور بعقلية العالم الذي رحلت عنه. ولكن ما أريده منك أن تعتاد النظر إلى الأمور بعقلية هذا العالم وليس العالم الآخر. لنفترض أن ما تدَّعي أنه الأسوأ يجب أن يحدث، افترض أنها شُنِقت، ماذا إذن؟»

وقف برنتون عاجزًا عن الرد وحانقًا من تعليقه الفظ.

واصل فيريس بوتيرته الهادئة: «إذا نظرت إلى الأمور نظرةً صحيحة، فسترى أنه ربما تمر بلحظة ضيق، ربما ليست هذه اللحظة بالضرورة، وستجد زوجتك بعدها هنا في أرض الأرواح. وأنا على يقين من أن هذا لقاء تهفو إليه بشدة. وحتى الرجل في مثل حالتك يجب أن يدرك منطقية هذا الأمر. والآن إذا نظرنا إلى المسألة فيما يتعلق بما تدَّعي أنه الجانب

الأكثر خطورة، فانظر إلى ضآلة الأمر. لا يستحق أن تُمضي لحظةً في التفكير فيه، مهما كان الطريق الذي يسلكه.»

«تعتقد أنه من الطبيعي، إذن، أن تموت ميتةً مخزية كهذه وأن تنال مثل هذا الظلم المؤلم؟»



اللعبة المكسورة.

«وأنت في الدنيا، هل رأيت مِن قبلُ طفلًا يبكي على لعبةٍ مكسورة؟ هل أوجعك بكاؤه بأي درجة؟ ألم تكن تعلم أن من الممكن شراء لعبة جديدة تبدد أفكاره المؤلمة؟ هل تحمل

أحزان الطفولة البسيطة أي هلع يظل راسخًا ودائمًا في ذهنِ رجلٍ ناضج؟ بالطبع، لا. لديك من الوعي ما يكفي لتدرك ذلك. حسنًا، نحن في هذا العالم ننظر إلى الألم والصراعات والمِحن التي يعاني منها أهل العالم الذي فارقته تمامًا كنظرة رجلٍ مسن لمعاناة طفلٍ انكسرت دميته. هذا هو حجمه حقًّا. وهذا ما أعنيه عندما أقول إنك لم تكتسب بعدُ حس موازنة الأمور. أي حزنٍ وشقاء في العالم الذي فارقته هو حزن عابر ومؤقت، حتى إننا حين نفكر لوهلةٍ في الحياة الحرة الطليقة الخالية من الألم الكامنة وراءه؛ تصبح تلك المشكلات التافهة لا وزن لها. يا رفيقي العزيز، ليكن عقلك راجحًا وخذ بنصيحتي. إن أمرك يهمني بشدة حقًّا وأنصحك بأن تنسى الأمر برمته، وهذا ليس إلا لمصلحتك أنت. وقريبًا جدًّا سيصبح لديك شيء أهم كثيرًا من الحَوم حول العالم الذي فارقته. إذا جاءت زوجتك وأصبحت بيننا، فلا أشك في أنه سيسرك أن ترُحِّب بها وتعلِّمها الأشياء التي ستكون قد اكتشفتها بالفعل عن حياتك الجديدة. وإن لم تأتِ، فستعرف حينها، حتى من منظور عالمك القديم، أن الأمور قد سارت «على ما يرام» كما تقولون. دع هذه الأمور التافهة تمضي، وانتبه للأمور الأهم بكثير التي ستجذب انتباهك هنا عما قريب.»

كان حديث فيريس جادًّا، وكان واضحًا، حتى لبرنتون نفسه، أنه يعني حقًّا ما قاله. كان من الصعب إيجاد ذريعة للشجار مع رجلٍ صار من فوره في غاية الهدوء وواثقًا تمام الثقة من نفسه.

قال برنتون: «لن نتحدث أكثر من ذلك في هذا الأمر. أظن أن الناس هنا يتقبلون الاختلاف تمامًا مثلما كانوا في العالم الذي غادره كلانا.»

أجابه فيريس: «بالتأكيد، بالتأكيد. لقد سمعت رأيي لتوِّك بالطبع، لكنك ستجد آخرين كُثُرًا لا يتفقون معي في الرأي. وسيصادفك كثيرون يهتمون بأمر التواصل مع العالم الذي غادروه. وستعذرني بالطبع عندما أخبرك بأنني أرى مثل هذه المحاولات لا تستحق عناء الحديث عنها.»

«هل تعرف أي شخص يهتم بمثل هذه الموضوعات؟ وهل لك أن تعرِّفني به؟»

أجابه فيريس: «أوه! لقد عرَّفتك من قبلُ إلى واحدٍ من أكثر المحققين في هذا الموضوع حماسًا. أرشح لك السيد جون سبيد، الذي كان يعيش في شيكاجو.»

رد برنتون ببعض التردد: «آه! لا مفر من الاعتراف بأنني لم أستلطف السيد سبيد كثيرًا. ربما ظلمته.»

قال فيريس: «بالتأكيد ظلمته. ستجد أن سبيد رجلٌ جديرٌ بالمعرفة رغم أنه يستنزف طاقته في مثل هذه المشروعات التي لا تأتي بنفع؛ كوضع مخططٍ للتواصل مع مجتمعٍ فانٍ تمامًا مثل مجتمع شيكاجو. ستُعجب بالسيد سبيد كلما تعمقت في معرفته. إنه شخصٌ محبٌّ حقًّا للخير، وهو الآن يتولى أمر سومرز. وأتصوَّر مما قاله بعدما غادرتَ فينيسيا أنه لا يُضمر لك المشاعر نفسها التي تضمرها تجاهه. سأقابل سبيد لو كنت مكانك.»

قال برنتون وهما يفترقان: «سأفكر بالأمر.»

لا ضير من الإقدام على التعرف أكثر إلى رجل تعرف أنه يُحسن التفكير في شخصٍ آخر، حتى إن لم تكن الانطباعات الأولى مُرضِية، وبعد أن أخبر فيريس برنتون بأن سبيد يحمل صورةً جيدةً عنه، وجد برنتون أن الوصول إلى هذا الرجل الحماسي القادم من شيكاجو بات أقل صعوبة.

تحدث برنتون إلى سبيد قائلًا: «لقد واجهت متاعب كثيرةً وكنت أتحدث إلى فيريس عنها. يؤسفني القول إنه لم يمنحني سوى النزر القليل من التشجيع، ولم يُبدِ تقديرًا على الإطلاق لمشاعري تجاه ما أعانيه.»

قال سبيد: «لا تؤاخذ فيريس بما يفعل. إنه رجل من الطراز الأول، لكنه بارد الطبع ولا يُظهر تعاطفه للآخرين مثل؛ حسنًا لنقل مثل المَحار. إن هوايته المفضلة هي الانقطاع عن التواصل مع العالم الذي رحلنا عنه. وفي هذه النقطة لا أتفق معه، وهناك آلاف لا يتفقون معه. أُقر بأن ثمة حالات يزداد الإنسان فيها تعاسةً إذا تردد على العالم القديم عما إذا انفصل عن ذلك العالم وغادره. لكن ثمة حالات أخرى يكون العكس فيها صحيحًا. ولك في تجربتي عبرة؛ فأنا أجد متعةً غريبةً في التجول في شيكاجو. أعترف أنه ظلمٌ لي كصحفي قديم أن أرى أكثر من سبقٍ صحفي كان بإمكاني أن أتفوق به على زملائي الموقرين، لكن ...»

سأل برنتون متحيرًا: «سبق؟ ماذا تقصد؟»

«السبق الصحفي هو الخبطة الصحفية، كما تعرف.»

«حسنًا، لكن لا أعرف. ما المقصود بالخبطة الصحفية؟»

«عزيزي، الخبطة أو السبق هو أن تنفرد بخبرٍ لم يحصل عليه زملاؤك. ألم يكن لك خبرة مطلقًا في مهنة الصحافة؟ حسنًا، لقد فاتك الكثير سيدي. إن الصحافة أعظم مهنةٍ في العالم. فأنت تعرف كل ما يدور قبل أن يعلم به أي شخص آخر بفترة طويلة، والطريقة التي يمكن أن تكافئ بها أصدقاءك وتطأ بقدميك على أعدائك هي إحدى متع الحياة هناك.»

قال برنتون: «حسنًا، هذا ما كنت أرغب في الاستفسار عنه. لقد تخصصتَ في معرفة ما إذا كان من الممكن أن يكون ثمة تواصل بين أحد منَّا، على سبيل المثال، وبين شخصٍ من سكَّان العالم الآخر. هل يوجد أي سبيل ممكن للتواصل؟»

«لقد كرَّست بعض الوقت لدراسة هذه المسألة بلا شكٍّ، ولكن لا يمكنني القول إن في نجاحي ما يدعو للزهو به. كانت أغلب محاولاتي في اتجاه الأخبار. توصَّلتُ إلى بعض المعلومات المذهلة التي سمحت لي قُدراتي هنا بأن أصل إليها، وأعترف بأني قد بذلت قصارى جهدي لكي أُطلِع بعض الأصدقاء عليها. لكن ثمة حلقةً مفقودةً في مكانٍ ما. ولكن ما طبيعة متاعبك؟ هل تسعى لإيصال رسالةٍ لشخص ما؟»

رد برنتون باختصار: «هذه هي مشكلتي. إنني هنا لأنني قُتلت مسمومًا منذ أيام قليلة مضت.»

صاح الآخر: «يا للهول! لا تقل هذا! وهل وصل الخبر إلى الصحف؟»

«وصل بكل أسف.»

«يا له من خبر لو انفردت به صحيفة واحدة دون الصحف الأخرى! أم أن جميعها توصلت إليه في التوقيت نفسه؟»

قال برنتون: «لا أدري شيئًا عن ذلك، وعليَّ أن أعترف أن هذا لا يشغلني كثيرًا. لكن المشكلة هي أن زوجتي ألقي القبض عليها بتهمة قتلي، وهي بريئة مثلي تمامًا.»

«هل أنت متأكد من ذلك؟»

صاح برنتون بغضب: «متأكد من ذلك؟! بالطبع متأكد من ذلك.»

«إذن، من الجاني؟»

رد برنتون: «آه، لا أعرف حتى الآن.»

«إذن من أين لك هذه الثقة بأنها ليست الجاني؟»

صاح برنتون: «إذا كنت أنت تتحدث هكذا، فليس لديَّ ما أقوله أكثر من ذلك.»

«أرجوك، لا تأخذ الحديث على محمل الإهانة. أنا أنظرُ إلى هذا الأمر من منظور صحفي فقط، كما تعرف. عليك أن تتذكر أنك لست المعني بالبت في الأمر، بل هيئة محلَّفين مؤلفة من مواطنين أغبياء للغاية. والآن، لا يمكنك أبدًا أن تعرف ما ستفعله هيئة المحلَّفين سوى أنها ستقوم بشيءٍ أحمق. لهذا، يبدو لي أن الخطوة الأولى التي لا بد من اتخاذها أن تكتشف الطرف المذنب. ألا تدرك أثر تلك الخطوة؟»

«أجل، أدركها.»

«عظيم، إذن. والآن، ما ملابسات هذه الجريمة؟ مَن المستفيد من موتك؟»

أجفل برنتون من السؤال.

فقال الآخر: «أتصور الموقف وأتفهَّم امتناعك عن الإجابة. لكن لا تؤاخذني إذا كنت صريحًا، زوجتك هي أكثر من انتفعت بموتك، أليس كذلك؟»

صاح برنتون بغضب: «لا، لم تكن هي. هذا ما قاله المحامون. لماذا ينبغي أن تريد أن تقتلني مسمومًا، في الوقت الذي كانت فيه ثروتي كلها تحت تصرفها؟»

أجاب سبيد: «حسنًا، هذه نقطة قوية. كنتَ زوجًا مخلصًا بدرجة مقبولة، على ما أظن، صحيح؟ هل كنتَ سخيًّا معها في المال؟»

صاح الآخر: «سخيًّا؟ لقد كانت زوجتي تنال دومًا كل شيء ترغب فيه.»

«آها، حسنًا، ستعذرني بالتأكيد، ولكن ألم يكن هناك حبيب سابق في الأفق؟»

أجفل برنتون مرةً أخرى وتذكَّر رولاند وهو جالسٌ بجانب زوجته ويداها في يده.

قال سبيد: «الأمر واضح، لست بحاجة إلى الإجابة. والآن، ما الملابسات مرةً أخرى؟»

«الملابسات كالآتي: في حفل عشاء أقمته، اجتمع قرابة عشرين أو خمسة وعشرين من أصدقائي، وعلى ما يبدو أن سُمًّا قد وُضع لي في فنجان قهوتي. هذا كل ما أعرفه.»

«من صبَّ لك القهوة؟»

«زوجتي.»

«أرأيت! تذكَّر أنني لم أقل للحظة حتى الآن إنها الجاني، لكن عليك أن تُسلِّم بأنه بالنسبة إلى هيئة محلفين حمقاء، ربما لن تسير القضية في صالحها.»

«حسنًا، على فرض أن الموقف هكذا، ثمة حاجة مُلحَّة لأن أساعدها إذا أمكن.»

قال سبيد: «بالتأكيد، بالتأكيد! سأخبرك الآن بما علينا فعله. علينا أن نصل، إن أمكن، إلى واحدٍ من أبرز المراسلين الصحفيين في شيكاجو ممن يتابعون هذه القضية، وعلينا أن نضعه في طريق هذه القضية في بدايتها. تعالَ معي إلى شيكاجو. سنُجري تجربة، وأنا على يقين من أنك ستكرس لهذه المحاولة كل تفكيرك واهتمامك. لا بد أن نتخذ خطواتٍ متزامنةً مع سير القضية، وأنت الشخص الذي كنت أنتظره؛ شخص رزين له شيء مهدد بالخطر. قد نخفق تمامًا، ولكن أعتقد أن الأمر يستحق عناء المحاولة. هل ستأتي معي؟»

قال برنتون: «بالتأكيد، ولا يَسَعُني أن أعبر لك عن مدى تقديري لاهتمامك وتعاطفك.»

عند وصول برنتون وسبيد إلى مبنًى من الحجر البُني عند مُلتقى شارعَين من أهم شوارع شيكاجو، ما لبثا أن صعدا سريعًا إلى أحد الطوابق العلوية. كان ذلك في منتصف الليل تقريبًا، ومن المبنى الضخم الذي كساه الظلام برز طابقان علويان بإضاءة ساطعة

يعكسها صفٌّ طويل من النوافذ المتلألئة التي تظهر من خارج المبنى. دخل الاثنان إلى غرفة يجلس في داخلها رجلٌ إلى إحدى الطاولات، وقد خلع عنه معطفه وصدريته، واستقرت قبعته على مؤخرة رأسه. رغم برودة الجو بالخارج، كانت غرفة الرجل يعمها الدفء من الداخل ويلف أرجاءها دخانٌ أزرق. من بين أسنانه برز غليونٌ أسود مقدمته من كوز الذرة، وعلى ورق طباعة أبيض رديء، كان الرجل يكتب سريعًا ودون انقطاعٍ كمن يخشى على حياته من خطر ما، ثم يتوقف من حينٍ لآخر ليملأ غليونه أو ليعيد إشعاله بعدما ينطفئ.

قال سبيد وهو يلوِّح بيده نحو الكاتب يملؤه شعورٌ بالاعتزاز بنفسه: «ها هو هناك يجلس واحد من أمهر الرجال في صحافة شيكاجو. لقد وُهِب هذا الزميل، يا سيدي، أنفًا يتشمم بها الأخبار ليس لها منافس في أمريكا. يظل ينبش في القضية إلى أن يجد ضالته المنشودة، وما إن يبدأ حتى يسير فيها دون أن يرتكب أي خطأ إلى حدٍّ سيبهرك. أجل، يا سيدي، أنا مَن رشَّحتُه لمنصبه الحالي في هذه الصحيفة، وبإمكاني أن أخبرك بأنه كان شخصًا جيدًا.»

قال برنتون غير مبالٍ وكأنه لا يعنيه كثيرًا ذلك الإطراء: «لا بد أنه كان صديقًا حميمًا لك، أليس كذلك؟»

قال سبيد: «على النقيض تمامًا. كان منافسًا شرسًا، وكانت منافسته الشرسة هذه تسبب لي أنا متاعب أحيانًا. كان يعمل لصالح صحيفة مُنافِسة، ورغم أن شأني لم يكن قليلًا في مجال الصحافة حينها، كان ذلك الرجل يسرق مني الأضواء كلما حاول ذلك. ولهذا، وحتى أتخلص من المنافسة، أقنعت مدير التحرير بأن يعيِّنَه في منصبٍ بصحيفتنا، وأؤكد لك أنه لم يندم للحظة واحدة. نعم، يا سيدي، إن مَن يجلس هناك هو جورج ستراتون، ذلك الرجل الذي يجيد مهنته. الآن، دعنا نركِّز انتباهنا عليه. أولًا، دعنا نرَ إن كان بإمكاننا أن نترك أي انطباع في ذهنه إذا سخَّرنا أذهاننا كلها لهذا الأمر. بالطبع لا يخفى عليك مدى انهماكه. إنه يبدو مستغرقًا إلى أقصى حدٍّ في عمله. هذا هو جورج إجمالًا. أيًّا كانت المهمة التي يُكلَّف بها جورج، ينغمس فيها بكل حواسه في الحال، ولا يفكر في شيء آخر حتى يفرغ منها. لنبدأ الآن.»

في تلك الغرفة الكئيبة التي ينتشر في أرجائها ضوء ساطع، جلس جورج ستراتون منهمكًا في حساب عدد الأسطر التي يجب أن تظهر صباح اليوم التالي في الصحيفة. كان واضحًا استغراقه الشديد في مهمته، مثلما ذَكَر سبيد. لو كان قد نظر حوله، وهو ما لم

يفعله، لقال إنه كان بمفرده تمامًا. وعلى حين غِرَّة، بدا أن شيئًا ما قد شتت انتباهه، فمرر يده على جبينه بينما اعتلى وجهه تعبير من الحيرة والاضطراب. ثم لاحظ أن غليونه قد انطفأ، فأزاح الرماد بخبطة خفيفة لوعاء الغليون على جانب الطاولة، ثم عبَّأه في شرود غريب عن طبعه. عاد مرةً أخرى إلى كتابته، ومرةً أخرى مرر يديه على جبينه. وفجأةً ودون مبرر، نظر أولًا إلى يمينه ثم إلى يساره. ثم عاود الكتابة مجددًا، لكن، ما إن التفت إلى انطفاء غليونه، حتى أشعل عود ثقاب آخر وبدأ ينفخ فيه بعصبيةٍ حتى تصاعدت سحب من الدخان الأزرق حوله. اتقد وجهه بنظرة امتعاضٍ وحيرة وهو يعمد بعزمٍ إلى مواصلة كتابته. ثم انفتح الباب، وظهر رجلٌ عند عتبته.

قال الرجل: «هل لديك أي شيء آخر عن المؤتمر، يا جورج؟»

«أجل؛ إنني على وشك الانتهاء. إنها مسودات مصورة كما تعلم.»

«لعل بإمكانك أن تعطيني ما أنجزته. سوف أقوم بتصحيحه.»

قال ستراتون وهو يلملم الأوراق أمامه ويسلِّمها إلى محرر الأخبار المحلية: «لا بأس.»

نظر المحرر إلى عدد الصفحات ثم نظر إلى الكاتب.

فقال المحرر: «هل لديك المزيد من هذا، يا جورج؟ لن يكون لدينا متسع من المساحة في الصباح كما تعرف.»

أجابه الآخر، وقد عاد إلى الجلوس في مقعده: «حسنًا، ما لديك يكفي. يفضل الجمهور أن يشاهد دائمًا رسومًا للرجال المنخرطين في المشادة عن أن يقرءَوا تقارير عما بدر منهم من الكلام.»

قال محرر الأخبار المحلية: «نعم، هذا صحيح.»

قال ستراتون: «لكن، بإمكاننا أن نقلل حجمها في الصفحة الأخيرة. هلا سمحت لي بأن ألقي نظرةً على الصفحتين الأخيرتين؟»

تسلَّم ستراتون الصفحتين، وجال بعينيه سريعًا فيهما ثم أشار بسكينه إلى إحدى الصفحات، ثم وضع في نهايتها علامةً غامضةً تشير إلى نهاية النسخة.

«هنا! سأتوقف عند هذه النقطة. ليس لصورة ريكينبيك العجوز أي أهمية، على أي حال. سوف نحذفه.»

قال محرر الأخبار المحلية: «لا بأس، أعتقد أنه لم يعد لدينا شيء آخر لننجزه الليلة.»

وضع ستراتون يديه خلف رأسه وأصابعه متشابكة ثم انحنى إلى الوراء في مقعده واضعًا قدميه على الطاولة أمامه. كان بإمكان أي قارئ للأفكار أن يستشف الموضوع



تبدو فاتنة الجمال.

الذي يشغل تفكيره بمجرد التطلع في وجهه. وفجأةً أنزل قدميه بقوةٍ على الأرض ونهض ثم توجَّه إلى غرفة محرر الأخبار المحلية.

قال: «انظر هنا. هل تحرَّيت عن قضية سينسيناتي؟»

سأل المحرر الداخلي، رافعًا بصره إليه: «ما قضية سينسيناتي تلك؟»

«قضية تلك السيدة المتهمة بتسميم زوجها.»

«أوه، نعم، لقد نشرنا خبرًا عن هذه القضية في طبعات هذا الصباح. كما تعرف، هذا خبر خارج خط الأخبار المحلية.»

«أجل، أعرف ذلك. لكنه ليس خارج خط الصحافة. أؤكد لك أن هذه القضية ستُحدِث ضجة. تبدو فاتنة الجمال. تزوجت لستة أشهر فقط ويبدو يقينًا أنها سممت زوجها. ستضج تلك المحاكمة بالإثارة والمفاجآت الصادمة، لا سيما إذا صدر حكم بإدانتها.»

نظر محرر الأخبار المحلية نظرةً تعكس اهتمامه بالحديث.

«هل ترغب في الذهاب إلى هناك، يا جورج؟»

«حسنًا لا أخفيك سرًّا، أعتقد أن الأمر يستحق.»

«دعني أرَ، اليوم هو آخر يوم في المؤتمر، صحيح؟ وسيعود كلارك من إجازته غدًا. حسنًا، إذا كان الأمر يستحق في ظنك، فتوجَّه إلى هناك وابحث في القضية، ثم أعدَّ لنا مقالًا خاصًّا يمكننا نشره في أول يومٍ من أيام المحاكمة.»

قال جورج: «سأفعل ذلك.»

نظر سبيد إلى برنتون.

«ماذا بوسع فيريس العجوز أن يقول الآن؟»

الفصل السادس

في صباح اليوم التالي، استقل جورج ستراتون القطار مسرعًا نحو سينسيناتي. عندما أعطى ستراتون دفتر أمياله لمُحصِّل القطار، لم يقل له شيئًا، لكن ظل يردد بصوتٍ خافت مقطعًا من أغنية قديمة غيَّر في كلماتها:

يا محصل القطار، خذ الأجرة ثلاثة أضعاف؛
فمعي من الأرواح اثنان لآخر المطاف.

كان لجورج ستراتون طابع عملي، ولم يعرف عن الأرواح شيئًا سوى ذلك الشيء الذي كانت تحويه قنينة صغيرة داخل حقيبة سفره الصغيرة الأنيقة.

حالما وصل إلى سينسيناتي، توجَّه مباشرةً إلى مقر إقامة المأمور. فقد رأى أن مهمته الأولى هي أن يصبح صديقًا لمسئول مهم كهذا. علاوةً على ذلك، كان يتمنى أن يُجري مقابلةً مع السجينة. وفي طريقه إلى هناك، خطط في عقله كيف سيكتب مقالًا تمهيديًّا يثير شهية قُراء صحيفة «شيكاجو أرجوس» لمتابعة أي تطورات أخرى قد تستجد أثناء المحاكمة وبعدها. سيكتب عن القضية كلها على هيئة قصة.

أولًا، سيكون هناك ملخص لحياة السيدة برنتون وزوجها. سيكون هذا أول شيء، وأعلاه سيكتب رقم ١ بالرومانية. تحت العنوان رقم ٢، يأتي سرد لوقائع الجريمة. وتحت العنوان رقم ٣ تُسرد الأحداث التي تلت وقوع الجريمة؛ تلك الأحداث التي أثارت الشكوك حول هذه السيدة البائسة، وأشياء أخرى من هذا القبيل. أما الجزء رقم ٤، فسيُفرد لحواره مع السجينة، إذا أسعفه الحظ ليجري حوارًا. وأسفل الجزء رقم ٥، سيطرح الرأي العام لسكان سينسيناتي في القضية ومدى إدانة زوجة السيد برنتون أو براءتها منها. ستشغل هذه المقالة التي تصورها في خياله بالفعل قرابة نصف صفحة من صحيفة «أرجوس».



يزيح الستار.

وسيلجأ في الكتابة إلى خطٍّ بارز ومميز وأسلوبٍ يجذب الانتباه؛ إذ كان يرى أنه أول من وضع قدمه على مسرح الحدث، ولن يُضطر إلى الاستعجال المعتاد في إعداد نسخته، ذلك الاستعجال الذي كان آفة حياته. سوف يمنح هذا المقال صحيفة «أرجوس» الصدارة حرفيًّا في هذه القضية التي أيقن أنها ستصبح واحدةً من القضايا ذات الأهمية القومية.

استقبله المأمور بأسلوبٍ مهذَّب، وعندما نظر إلى البطاقة التي قدمها إليه، لاحظ اسم «شيكاجو أرجوس» في جانبها. حينئذٍ بدا التحفز عليه واضحًا، وهو سلوكٌ ينتهجه جميع الضباط الحكماء عندما يجدون أنفسهم وجهًا لوجهٍ أمام رجل من رجال الصحافة؛ لأنهم يدركون أنه مهما أُعِدَّ مقالٌ بتأنٍ وحذر، فهذا لا ينفي احتمالية أن يحوي بعض العبارات المؤسفة التي تسقط سهوًا من كاتبها مما قد يؤثر سلبًا على حملاتهم السياسية مستقبلًا.

بدأ ستراتون حديثه قاصدًا صُلب الموضوع: «أردت مقابلتك بشأن جريمة مقتل برنتون.»

أجاب المأمور: «يمكنني أن أخبرك بلا تردد أنك إذا كنت ترغب في إجراء مقابلة مع السجينة، فهذا من رابع المستحيلات؛ لأن محاميَيها، بنهام وبراون، منعاها تمامًا من مقابلة أي صحفي.»

قال ستراتون: «هذا يبين أنهما رجلان حصيفان يحسنان فهم مهنتهما. لكني أرغب في مقابلة السيدة برنتون. ولكن ما أردت أن أخبرك به هو أن لديَّ قناعةً بأن هذه القضية ستصبح مثارًا للحديث قبل أن يمر عليها حتى عدة أسابيع. تعرف حتمًا مكانة «أرجوس» المتميزة داخل الوسط الصحفي. وما ستنشره الصحيفة سيكون له تأثير، حتى على صحافة سينسيناتي. أعتقد أن لا شك لديك في هذا. إن العديد من رجال الصحافة المرموقين ينظرون الآن إلى أي ضابط بوصفه عدوًّا لهم بالفطرة. لكنني لست منهم، على الأقل إلى أن تضطرني الظروف إلى ذلك. أنا على أتم الاستعداد لأن أعرض عليك أي شيء به إشارة إليك قبل أن يذهب إلى شيكاجو. وأعدك، إذا أردت ذلك، بأن أي شيء سيقال به ما يشير إلى منصبك أو إلى شخصك، لن يُنشَر قبل أن تطلِع عليه. بالطبع تسعى لإعادة انتخابك مرةً ثانية. لم أرَ مأمورًا في حياتي لم يسعَ لهذا.»

ابتسم المأمور حين سمع هذا دون أن ينكره.

«عظيم. يمكنني أن أخبرك الآن أنني أرى أن هذه القضية سيكون لها حتمًا تأثير قوي على انتخابك ثانية. فهنا تمكث سيدة شابة جميلة سوف تحاكم على جريمة مروِّعة. وسواء كانت مذنبةً أم بريئة، سيكون تعاطف الرأي العام من نصيبها. لو كنت مكانك، كنت سأفضل أن أُعرَف بأنني صديق لها، لا عدو.»

قال المأمور: «سيدي الفاضل، منصبي الرسمي يضعني في موقفٍ يجعلني لا أنا بصديق لهذه السيدة البائسة أو بعدو. لديَّ بكل بساطة واجب مكلَّف به، وهذا الواجب هو ما أعتزم أن أؤديه.»

صاح الصحفي بنبرة مرحة قائلًا: «لا بأس بهذا تمامًا! وأنا لن أطلب منك أن تتخطى حدود مهامك وواجباتك، ولكن أي مسئول قد يؤدي واجبه، وفي الوقت نفسه قد يسدي خدمةً وديةً إلى صحفي أو حتى لسجين. وكما كان يقال قديمًا: «إن لم تساعدني، فلا تكن ضدي.» هذا كل ما أطلبه.»

«لعلك متأكد، يا سيد ستراتون، بأنه من دواعي سروري أن أقدم لك أي شيء بوسعي فعله من أجل مساعدتك؛ اسمح لي الآن أن أوعز إليك بما تفعله. إذا أردت مقابلة زوجة

السيد برنتون، فأفضل سبيل لذلك هو الحصول على إذن من المحاميَين الموكَّلين عنها. ولو كنت مكانك لأحجمت عن مقابلة السيد بنهام؛ لأن أقل ما يُقال عنه إنه شخص صعب المِراس، ولا داعي لأن تخبره أنني قلت لك ذلك. توجه إلى السيد براون وكُن في حظوته. لدى براون بعض التطلعات السياسية، ولن يسعى إلى الإساءة إلى رجل يعمل في صحيفة ذات نفوذ واسم رنان مثل «أرجوس»، حتى إن لم تكن من صحف سينسيناتي. وإذا قدمت له العرض نفسه الذي قدمته لي، أظن أن كل شيء سيسير على ما يرام تمامًا. وإذا اطَّلع على نسختك قبل طباعتها، وإذا التزمت بوعدك معه بألا يظهر في الصحيفة أي شيء لم يطَّلع عليه، أعتقد أنك ستنجح في الفوز بمقابلة مع السيدة برنتون. وإذا جئتني بإفادةٍ من السيد براون، فسيسعدني أن أسمح لك بمقابلتها.»

شكر ستراتون المأمور على نصيحته. ثم دوَّن في مفكِّرته عنوان المحاميَين وتحديدًا اسم السيد براون. تصافح الرجلان وشعر ستراتون أنهما على وِفاق.

عندما وُجِّه السيد ستراتون إلى المكتب الخاص للسيد براون، قدَّم بطاقته إلى ذلك الرجل ذي الهيئة المهيبة، ولاحظ أن المحامي قد تسمَّر في مكانه بوضوح.

تنحنح المحامي ثم قال: «ستعذرني إن قلت لك إن وقتي ثمين. هل أردت أن تقابلني لدواعي عمل؟»

أجاب ستراتون: «أجل، من وجهة نظر صحفية.»

رد الآخر: «حسنًا، بخصوص ماذا؟»

«بخصوص قضية برنتون.»

«حسنًا، سيدي الفاضل، لقد امتنعت، على مضضٍ شديد، عن الإدلاء بأي معلومات كان سيسعدني الإدلاء بها، إن كان ذلك ممكنًا، إلى صحفيي مدينتنا؛ وعليه يمكنني أن أخبرك أنني أعتقد أنه يكاد يكون من المستحيل أن أسدي أي خدمة إلى أي صحيفة خارجية مثل «أرجوس».»

قال ستراتون: «رجال الصحافة المحلية يملكون صيتًا محليًّا. وهو ذلك الصيت الذي تملكه أنت. أما أنا فلي صيت ممتد في أرجاء الوطن لا تملكه أنت، وأرجو أن تعذرني فيما أقول. وحقيقة أنني هنا في سينسيناتي اليوم وليس في شيكاجو، إنما يعكس نظرة أهل شيكاجو إلى قضية سينسيناتي. فلديَّ قناعة، وكذلك صحيفة «أرجوس»، بأن هذه القضية ستحظى بأهمية قومية. والآن، اسمح لي بأن أسألك سؤالًا. هل لك أن تذكُر صراحةً الدافع وراء اعتراضك على مقابلة أي من رجال الصحافة، على سبيل المثال، لزوجة السيد برنتون، أو الحصول على أي معلومات متعلقة بهذه القضية سواء منها أو ممن لديك سُلطة عليهم؟»

أجابه براون: «سأجيب عن هذا السؤال بالقدر نفسه من الصراحة التي طرحته بها. أنت رجل عملي محنك، وتعرف بالطبع أننا جميعًا أنانيُّون، وفي أمور العمل كلٌّ يسعى وراء مصلحته الشخصية. مصلحتي في هذه القضية أن أدافع عن موكلتي. ومصلحتك في هذه القضية أن تكتب مقالًا مثيرًا. أنت تريد الحصول على الحقائق إن أمكن، ولكنك في كل الأحوال، تسعى إلى كتابة عمود أو عمودين يستحقان القراءة لصحيفتك. إذا سمحت لك بمقابلة السيدة برنتون، فقد تُصرِّح لك بشيء، وتنشره، من شأنه أن يقوِّض فُرصَها، وقد يضعنا أيضًا — بصفتنا محاميَيها — في موقفٍ محرج في سياق دفاعنا في القضية.»

قال ستراتون بنظرة إعجاب كما لو كان قد تأثر بالحُجج القوية التي أدلى بها المحامي: «لقد طرحت اعتراضك بوضوح وقوةٍ بالغَين. والآن إذا كنت قد تفهمتُ حجتك، فإنها تعني ببساطة أنك لا مانع لديك في مقابلة السيدة برنتون إذا مُنحت امتياز تنقيح نسخة المقال. بعبارة أخرى، إذا لم يُطبع سوى ما توافق عليه، فلن تتردد للحظةٍ في السماح لي بإجراء تلك المقابلة.»

قال المحامي مؤيدًا: «أجل، لم أكن أعرف أن لديَّ هذا الامتياز.»

«عظيم للغاية. هذا عرضي لك؛ أنا هنا لأباشر مصلحة صحيفتنا في هذه القضية. ستنفرد «أرجوس» على الأرجح بكونها الصحيفة الوحيدة خارج سينسيناتي التي ستفرد مساحةً كبيرةً لمحاكمة برنتون، إلى جانب ما تُفيدنا به «أسوشيتد برس» من أنباء. يمكنك الآن أن تمنحني تسهيلات عظيمةً في هذه المهمة إذا كنت حريصًا على ذلك، وفي المقابل، أنا على أتم الاستعداد لأن أعرض عليك كل سطرٍ من نسخة المقال الذي يخصك أو يخص موكلتك قبل إرساله للطباعة، وكلمة شرفٍ مني أن شيئًا لن يُنشَر إلا إذا اطَّلعت ووافقت عليه. وإذا أردت أن تحذف شيئًا أرى أن له أهميةً محورية، فسأخبرك صراحةً أنني أعتزم نشره ولكن سأعدِّل فيه قدر المستطاع ليناسب وجهة نظرك.»

قال المحامي: «فهمت. بعبارة أخرى، كما أشرت لتوِّك، عليَّ أن أمنحك تسهيلات خاصةً في هذه القضية، ثم عندما تكتشف حقيقةً ما أريد أن أبقيها سرًّا، تكون قد حصلت عليها بفضل التسهيلات التي منحتك إياها، ستخبرني بكل صراحة أنها يجب أن تُنشر، وبالطبع لن يكون بيدي سوى أن أُجرِّدك من أي تسهيلاتٍ أخرى كما تسمِّيها. لا يا سيدي، أنا لا أهتم بمثل هذه الصفقات.»

«حسنًا، على فرض أنني حذفت ذلك البند من الاتفاق، وأخبرتك بأنني لن أرسل أي شيءٍ للنشر سوى ما توافق عليه، هل ستكتب لي حينها رسالةً إلى المأمور وتسمح لي بمقابلة السجينة؟»

«يؤسفني أن أقول ...» ثم تردد المحامي للحظةٍ وألقى نظرةً سريعةً على البطاقة ثم أردف قائلًا: «يا سيد ستراتون، إنه ليس بوسعي الموافقة على طلبك.»

قال ستراتون وهو ينهض من مكانه: «أظن أنك تظلم نفسك. أنت ترفض، أولًا وأخيرًا، امتيازًا استثنائيًّا. إن لديك الآن خبرةً لا بأس بها في مجالك، وأنا لديَّ أيضًا خبرة لا بأس بها في مجالي، ويؤسفني أن أُعلِمك بأن ثمة رجالًا أبرز بكثير في تاريخ بلادهم من أي شخص يمكن أن يخطر ببالي الآن في سينسيناتي حاولوا منعي من مباشرة عملي، وباءت مساعيهم بالفشل.»

قال براون: «لا بد بالطبع أن أجرِّب حظي في هذا الصدد. لا أرى جدوى من الاستمرار في هذا الحوار أكثر من ذلك. وكما كنت صريحًا لدرجة — لن أقول تهديدي، ربما تحذيري هي الكلمة الأفضل — ومثلما كنت بارعًا في تحذيري، اسمح لي أن أقول لك قبل أن نفترق، إنني أنا من أُحذرك. بالطبع، نحن هنا في سينسيناتي لا نتوانى في الإقرار بأن أهل شيكاجو هم أذكى أهل الأرض، لكن يمكنني أن أقول لك إنك إذا شرعت في طباعة كلمة واحدة في صحيفتك غير صحيحة وتضر بموقفنا في القضية، أو إذا استعنت بأي وسائل غير قانونية للحصول على المعلومات التي ترغب بشدة في الحصول عليها، فستضع صحيفتك بكل تأكيد في مأزق، وستعرض نفسك للخطر.»

«حسنًا، كما أشرت منذ لحظة، يا سيد براون، عليَّ أنا أيضًا أن أجرِّب حظي في هذا الصدد. أنا هنا للحصول على الأخبار، وإن لم أفلح في هذا، فستكون هذه هي المرة الأولى في حياتي.»

قال المحامي: «عظيم. أتمنى لك ليلةً سعيدة.»

قال الصحفي: «شيء آخر فقط سأخبرك به قبل أن أتركك.»

أجاب المحامي وقد نفد صبره: «سيدي الفاضل، أنا مشغولٌ للغاية. لقد أعطيتك متسعًا من وقتي. عليَّ أن أطلب إنهاء هذه المقابلة في الحال.»

قال السيد ستراتون بهدوء: «أعتقد أنك ربما ستهتم بالمقال الأول الذي سأكتبه. سأخصص عمودًا واحدًا في صحيفة «أرجوس» في عدد بعد غد لخطة دفاعكم في القضية، وعما إذا كانت نظريتكم في الدفاع مقبولةً أم لا.»

دفع السيد براون كرسيه إلى الخلف ونظر بجدية إلى الصحفي الشاب. كان ذلك الصحفي حينها يرتدي قفازَيه في هدوءٍ وثبات، ثم أخذ في تلك اللحظة يزرر أحدهما.

صاح المحامي: «خطة دفاعنا! ماذا تعرف عن خطة دفاعنا؟»

قال ستراتون: «سيدي المبجل، أنا أعرف كل شيءٍ عنها.»

«سيدي، هذا مستحيل. لا أحد يعرف خطتنا في الدفاع سوى السيد بنهام وأنا.»

أجابه ستراتون وهو يزرر معطفه: «والسيد ستراتون، من صحيفة «شيكاجو أرجوس».»

«اسمح لي أن أسألك، إذن، ما خطتنا في الدفاع؟»

أجابه صحفي شيكاجو: «دون شك. خطتك في الدفاع هي الدفع بأن السيد برنتون كان مختلًّا عقليًّا، وأنه مات منتحرًا.»

حتى قدرة السيد براون المعتادة على ضبط النفس، التي اكتسبها على مدى سنواتٍ من التدريب على إخفاء مشاعره عن الأنظار، خذلته في تلك اللحظة. أخذ نفَسًا عميقًا بقوة، ونظر نظرةً حادةً إلى الصحفي الشاب الماثل أمامه، الذي ظل يتفرَّس في ملامح وجه المحامي، بالرغم من أنه بدا منشغلًا تمامًا بإغلاق أزرار معطفه. ثم ضحك السيد براون ضحكةً قصيرةً جافة.

قال دون اكتراث: «سبق لي أن قابلت مخادعًا، لكن أحب أن أعرف ما الذي جعلك تظن أن هذه هي خطتنا في الدفاع؟»

صاح الصحفي الشاب: «أظن! لا أظن ذلك مطلقًا؛ بل أعرف ذلك يقينًا.»

«وكيف عرفت؟»

«حسنًا، من شيءٍ واحد، عرفت ذلك من تصرفاتك منذ لحظة مضت. وأول شيء منحني فكرةً عن خطة دفاعكم هو ذلك الكتاب الملقى على مكتبك. إنه كتاب فوربس وينسلو عن العقل والدماغ؛ إنه كتاب ممتع للغاية، يا سيد براون، ومثير للاهتمام حقًّا. إنه يتناول موضوع الانتحار، والدوافع والحالات التي تنتاب المخ وتدفعه إلى ارتكاب ذلك. إنه كتاب جيد جدًّا حقًّا لاستطلاعه في قضية مثل هذه. طابت ليلتك، يا سيد براون. أنا آسف لعدم وجود مجال للتعاون بيننا في هذا الشأن.»

استدار ستراتون وسار نحو الباب، بينما راح المحامي يحدق فيه من الوراء وعلى وجهه نظرة ذهول تنمُّ عن عجزه. وحين وضع ستراتون يده على مقبض الباب، بدا المحامي وكأنه استفاق من حُلم.

صاح قائلًا: «توقف! سأعطيك خطابًا يسمح لك بالدخول لمقابلة السيدة برنتون.»

الفصل السابع

قال سبيد لبرنتون بنبرة انتصار: «أترى! ما رأيك فيما حدث؟ ألم أقل لك إن جورج ستراتون كان أذكى صحفي في شيكاجو؟ أصدقك القول إن حصوله على ذلك الخطاب من براون العجوز كان أذكى تصرُّف دبلوماسي رأيته على الإطلاق. ها قد رأيت سرعة إدراكه وشجاعته. لقد كان يقيِّم شخصية براون العجوز طوال حديثه معه. انظر كيف تصرَّف بهدوءٍ وهو يرتدي قفازيه ويزرر معطفه وكأنه يتهيأ للانصراف. ثم ألقى الصاعقة على براون بغتةً وبهدوءٍ وكأنه لم يقل شيئًا غريبًا على الإطلاق، وظل طوال الوقت يراقبه بطرف عينه. عليَّ أن أعترف يا سيدي، بأنه على الرغم من معرفتي بجورج ستراتون لسنوات، حسِبتُ أن ذلك المحامي من سينسيناتي قد انتصر عليه. وظننت أن جورج كان يُواري انهزامه بلباقة فحسب، ولكن ها هو قد أحبط خطة براون العجوز في غمضة عين. والآن بوسعك أن ترى نتيجة كل هذا. لقد اعترف له براون فعليًّا بخط الدفاع الذي يتبناه. لن ينشر ستراتون هذا، بكل تأكيد؛ فقد وعده بألا يفعل، لكنك ترى أن بإمكانه أن يُمسك هذا الأمر عليه، ويحصل على كل ما يريده ما لم يغيِّر المحاميان خطتهما في الدفاع.»

علَّق برنتون بنبرة متباطئة: «هذا صحيح، يبدو أنه صحفي شديد الذكاء بالفعل، لكني لا أستسيغ فكرة ذهابه لمقابلة زوجتي.»

«عجبًا، وما الخطأ في ذلك؟»

«حسنًا، الخطأ في ذلك هو أنها في ظل اكتئابها قد تفصح عن شيءٍ يؤخذ ضدها.»

«حتى إن فعلت، فماذا في ذلك؟ ألن يطَّلع المحامي على المقال قبل إرساله إلى الصحيفة؟»

«لست واثقًا من ذلك. هل تظن أن ستراتون سيعرض المقال على براون إذا توصَّل إلى ما تُسمِّيه سبقًا أو خبطةً صحفية؟»

أجابه سبيد بغضب: «بالطبع سيفعل، ألم يعِدْه بذلك؟»

أجابه برنتون بنبرة ارتياب: «بلى، أعرف أنه قد وعده بذلك، لكنه صحفي.» رد سبيد بنبرة تأكيد حاسمة: «قطعًا صحفي، ولهذا السبب سيَفي بوعده.»

«أتمنى ذلك، أتمنى ذلك، لكن عليَّ أن أعترف بأنَّه كلما تعمقت معرفتي بكم أيها الصحفيون، تكشَّف لي استهواؤكم الشديد للاحتفاظ بعناصر تحقيقٍ صحفيٍّ مدوٍّ إن أمكن.»

صحَّح له سبيد قائلًا: «أراهنك على شراب؛ لا، لا يمكننا أن نفعل ذلك، لكنك سترى أنه إذا تصرف براون بنزاهة مع ستراتون، فسيفي الأخير بكلمته مع براون بحذافيرها. لن يجدينا الحديث عن الأمر هنا نفعًا. دعنا نتتبع ستراتون، ونرى ما سيجري في المقابلة.»

قال برنتون بنبرةٍ فاترة: «أعتقد أنني أفضِّل الذهاب وحدي.»

أجابه سبيد باقتضاب: «كما تشاء، كما تشاء. ظننتك تحتاج إلى مساعدتي في هذا الأمر، ولكن إذا كنت في غنًى عن المساعدة، فلن أفرض نفسي بكل تأكيد.»

قال برنتون: «لا بأس، فلْتأتِ معي. بالمناسبة يا سيد سبيد، ما رأيك في خط الدفاع هذا؟»

«حسنًا، لا أعلم ما يكفي عن ملابسات القضية حتى أكوِّن رأيًا فيه. لكن يبدو لي أنه خط جيد إلى حدٍّ ما.»

«لا يمكن أن يبدو جيدًا وهو غير حقيقي. قطعًا لن يفلح.»

قال سبيد: «بالتأكيد، ولكن أراهنك على أربعة دولارات ونصف أنهم سيثبِتون أنك كنت معتوهًا مختلًّا قبل أن تنقطع صلتهم بك. ومن المرجح للغاية أن يُثبتوا محاولتك تسميم نفسك مرتين أو ثلاثًا، ويستدعوا العشرات من أصدقائك ليثبتوا أنهم عرفوك طيلة حياتك تعاني من اختلالٍ عقلي.»

سأل برنتون في اضطراب: «هل تعتقد أنهم سيفعلون ذلك؟»

«أعتقد ذلك؟! لا يساورني شك في ذلك. ستتناقل الأجيال من بعدك أنك واحد من أكثر المختلين عقليًّا على الإطلاق ممن عاشوا في سينسيناتي. ولن تُخلَّد أي ذكرى لك عندما تنقطع صلتهم بك.»

في تلك الأثناء، كان ستراتون في طريقه إلى مقر إقامة المأمور.

قال ذلك المأمور عندما التقيا: «آها، لقد نجحت في الحصول على خطاب منه، أليس كذلك؟ حسنًا، كان ظني أنك ستنجح في ذلك.»

«لو سمعت الحوار الذي دار بيني وبين صديقي المبجل السيد براون حتى اللحظة الأخيرة، لما ظننت ذلك.»

«حسنًا، براون يتعامل بدماثة شديدة مع الصحفيين عمومًا، وهذا أحد الأسباب التي تجعلك تلاحظ تردد اسمه كثيرًا في الصحف.»

«لو كنت أحد صحفيي سينسيناتي، بوسعي أن أجزم لك أن اسمه لم يكن ليظهر كثيرًا في أعمدة صحيفتي.»

«يؤسفني أن أسمعك تقول ذلك. ظننت أن براون يتمتع بشعبية واسعة بين الصحفيين. لكنك بالرغم من ذلك حصلت على الخطاب، صحيح؟»

«أجل، حصلت عليه. تفضَّل. يمكنك قراءته.»

ألقى المأمور نظرةً سريعةً على الخطاب الموجز، ثم وضعه في جيبه.

«تفضَّل بالجلوس لحظة، إذا تكرَّمت، وسأرى إذا كانت السيدة برنتون مستعدةً لاستقبالك.»

جلس ستراتون، ثم سحب ورقةً من جيبه، وكان منشغلًا بقراءتها عند دخول المأمور مجددًا.

بدأ المأمور الحديث قائلًا: «يؤسفني أن أخبرك بأنه بعد كل ما تكبدته من عناء، ترفض السيدة برنتون رفضًا قاطعًا أن تقابلك. وكما تعرف لا أملك أن أُجبر سجينًا على مقابلة أي شخص. تتفهم ذلك، بالتأكيد.»

قال ستراتون بعد تفكير لبرهة: «بالتأكيد. اسمع، أيها المأمور، ببساطة أنا مُصر على التحدث مع هذه السيدة. والآن، هل لك أن تخبرها بأني على معرفةٍ شخصية بزوجها، أو شيء من هذا القبيل؟ وسأصحح هذه المعلومة عند مقابلتها.»

قال برنتون لسبيد بعد أن تفوَّه ستراتون بهذا التعليق: «الوغد.»

قال سبيد: «سيدي الفاضل، ألا ترى أن هذا الرجل تحديدًا هو الشخص الذي نريده؟ ليس هذا هو الوقت المناسب للتدقيق في كل شيء.»

«أنت مُحق، ولكن فكِّر في مدى الخيانة والدناءة في أن يخبر امرأةً بائسةً مسكينةً بأنه كان على صلةٍ بزوجها، الذي لم تمر على وفاته سوى بضعة أيام.»

قال سبيد: «انتبه إليَّ، إذا كنت ستنظر إلى الأمور بهذه الطريقة، فستصبح عقبةً وليس عونًا في هذا الأمر. ألا تقدِّر الموقف؟ إن محامِيَي زوجة السيد برنتون، كما قلت، يريان أنها مذنبة. ما الذي يمكن إذن أن يتوصلا إليه من حديثهما معها، أو المنفعة التي قد يسديانها لها وهما في قرارة نفسيهما متحيزان ضدها بالفعل؟ ألا ترى ذلك؟»



جين.

لم يرد برنتون بأي شيء، لكن بدا واضحًا عليه أنه مضطرب اضطرابًا شديدًا.

سأل المأمور: «هل كنت تعرف زوجها؟»

«لا، لأكون صادقًا، لم أسمع به مطلقًا قبل ذلك. لكن لا مفر من مقابلة هذه السيدة، لمصلحتي ومصلحتها، ولن أدع أمرًا بسيطًا مثل هذا يقف حائلًا بيننا. ألن تخبرها بأني أتيت حاملًا خطابًا من محامِيَيها؟ فقط أرِها الخطاب، وأخبرها بأني لن آخذ من وقتها سوى القليل. أعتذر عن الإلحاح عليك في هذا الطلب، لكنك ترى موقفي.»

قال المأمور بأسلوبٍ دمِث: «لا بأس. من دواعي سروري أن تحقق ما تريد.» ومِن ثَم اختفى في الحال مرةً ثانية.

ظل المأمور في الخارج هذه المرة لفترةٍ أطول من سابقتها، وأخذ ستراتون يذرع الغرفة في نفاد صبر. وأخيرًا، عاد المأمور، وقال:

«لقد وافقت السيدة برنتون على مقابلتك. تفضل من هنا.» ثم تابع المأمور حديثه، وهما يسيران معًا: «أعلم أنك ستلتمس لي العذر، لكن جزءًا من واجبي أن أبقى في الغرفة طوال مدة لقائك بالسيدة برنتون.»

قال ستراتون: «بالتأكيد، بالتأكيد. أتفهَّم ذلك.»

«عظيم؛ إذن، لو كان لي أن أُدلي باقتراح، لقلت إنه ينبغي لك أن تستعد للاستفسار فقط عما تريد معرفته، وأن تنجز هذا في أسرع وقتٍ ممكن؛ لأن السيدة برنتون في حالة إنهاكٍ عصبي حقًّا، ومن القسوة أن تخضعها لأي استجواب عنيف.»

قال ستراتون: «أتفهَّم ذلك أيضًا، لكن عليك ألا تنسى أنها ستخضع لمحاكمة أكثر قسوةً مستقبلًا. أنا في غاية التعطُّش للوصول إلى حقيقة هذا الأمر؛ ولهذا، إذا بدا في نظرك أنني أطرح أسئلةً كثيرةً غير ضرورية، أتمنى منك ألا تتدخَّل ما دامت السيدة برنتون ترتضي الإجابة عنها.»

قال المأمور: «لن أتدخَّل أبدًا، أردت تنبيهك فقط؛ لأنها قد تنهار في أي لحظة. أظن أنه سيكون من الحصافة أن ترتِّب أسئلتك بحيث تطرح الأسئلة الأكثر أهميةً أولًا. أحسبك قد رتبت الأسئلة جيدًا في عقلك، صحيح؟»

«حسنًا، لا يمكنني الجزم بذلك؛ كما ترى، فالمشهد ضبابيٌّ أمامي. فلم أحصل على أي شكلٍ من المساعدة من المحاميَين، ومقتنع تمام الاقتناع بأنهما يسلُكان مسلكًا خاطئًا بناءً على ما أعرفه عن دفاعهما.»

«ماذا! هل أفضى لك براون بأي شيءٍ عن خطة الدفاع؟ هذا ينافي حيطته المعتادة.»

أجابه ستراتون: «لم يقصد، لكنني توصَّلتُ إلى كل ما سعيت لمعرفته. كما تعرف، سوف أحتاج إلى طرح أسئلة كثيرة تبدو عشوائيةً لا أهمية لها لأنك لا يمكنك أبدًا في قضية على هذه الشاكلة أن تحدد متى قد تحصل على مفتاح حل اللغز بأكمله.»

قال المأمور، وهو يطرق الباب، ثم يدفعه ليُفتَح: «حسنًا، ها قد وصلنا.»

منذ اللحظة التي وقعت فيها عين جورج ستراتون على السيدة برنتون، لم يعُد اهتمامه بالقضية اهتمامًا صحفيًّا محضًا.

كانت السيدة برنتون تقف بالقرب من النافذة، وبدت هادئةً ومتماسكةً للغاية، لكن أصابعها كانت ترتعش بشدة، تتشابك معًا تارةً وتتفرق تارةً أخرى. كان ثوبها الأسود المتواضع لا يختلف اثنان على جماله.

ارتأى جورج أنه لم يرَ في حياته امرأةً بهذا الجمال.

بينما هي واقفة، كان واضحًا أنها تعتزم أن يكون الحوار قصيرًا.

قال ستراتون: «سيدتي، أعتذر كثيرًا عن إزعاجك؛ لكنني مهتم أشد الاهتمام بالوصول إلى حلٍّ لهذا اللغز، وحصلت على إذن بزيارتك من المحاميَين الشخصيين لك. أؤكد لكِ أن أي شيء ستدلين به سيُرسَل إليهما؛ لئلا يتسبب أي تصريح يصدر منك في الإضرار بالقضية وتعريضها لأي خطر.»

قالت السيدة برنتون: «لا أخشى أن تتسبب الحقيقة في الإضرار بالقضية أو تعريضها لخطر.»

أجاب الصحفي: «أنا على يقين من ذلك.» ثم، ولعلمه أنها لن تجلس إذا طلب منها الجلوس، واصل ستراتون حديثه بلباقة: «سيدتي، هل تأذنين لي بالجلوس؟ أريد أن أسجِّل ملاحظاتي بدقة قدر المستطاع. فالدقة هي نقطة من نقاط قوتي المميزة.»

قالت السيدة برنتون: «بالتأكيد.» ولمَّا تبين لها أنه من غير الوارد أن تستغرق المقابلة وقتًا قصيرًا، جلست على مقعدها بالقرب من النافذة، بينما اتخذ المأمور مقعدًا له في الزاوية، وأخرج صحيفةً من جيبه.

قال الصحفي: «والآن، يا سيدتي، ثمة عدد كبير من الأسئلة التي سأطرحها عليكِ قد تبدو تافهة، لكن كما أوضحتُ للمأمور منذ قليل، قد تصدر منك كلمة تبدو لكِ بعيدةً كل البُعد عن القضية ولكنها تمنحني طرف خيط لا يُقدَّر بثمن. لذلك، أثق أنك سوف تلتمسين لي العذر إذا بدت لكِ بعض الأسئلة التي سأطرحها عليكِ خارج سياق القضية.»

أومأت السيدة برنتون برأسها، لكن دون أن تتفوه بشيء.

«هل كانت أعمال زوجك في وضعٍ جيد وقت وفاته؟»

«كانت في وضعٍ جيد على حد علمي.»

«هل لاحظتِ مِن قبلُ أي شيء في سلوك زوجك يدفعك إلى الاعتقاد بأنه قد يكون قد اعتزم الانتحار؟»

رفعت السيدة برنتون بصرها وقد اتسعت عيناها في دهشة.

قالت: «بالطبع لا.»

«هل سبق أن تحدث إليك عن موضوع الانتحار؟»

«لا أذكر أنه تحدث عن ذلك أبدًا.»

«هل سبق أن بدت تصرفاته غريبة؟ باختصار، هل لاحظتِ عليه من قبلُ أي شيءٍ يدفعك إلى التشكيك في قواه العقلية؟ أعتذر إليك إذا كانت أسئلتي تبدو مؤلمة، لكن لديَّ من الأسباب ما يجعلني أرغب في التحقق من هذه النقطة.»

قالت السيدة برنتون: «لا، كان في كامل قواه العقلية. لم يكن هناك من هو أكثر اتزانًا منه. أنا على يقين من أنه لم يفكر مطلقًا في الانتحار.»

«وما السبب وراء يقينك التام من هذه النقطة؟»

«لا أعلم السبب. كل ما أعرفه فقط هو أنني على يقين قاطع من ذلك.»

«هل لديكِ فكرة إن كان له أي أعداء قد يتمنَّون موته؟»

«لا أظن أنه كان له ولو عدو واحد على وجه الأرض. ليس لديَّ أدنى فكرة عن وجود أي أعداء له.»

«هل سبق أن سمعتِه يتحدث إلى أي شخصٍ بروحٍ عدائية؟»

«إطلاقًا. لقد كان رجلًا لا يُكِنُّ عداءً تجاه أحد. كان يتجنَّب مَن لا يُحبه.»

«يقال إن السُّم قد دُسَّ له في قهوته.» ثم التفت ستراتون إلى المأمور وقال: «هل تعلم كيف توصَّلوا إلى هذا الاستنتاج؟»

أجاب المأمور: «لا، ليس لديَّ فكرة. في الواقع، لا أجد أي سبب يدفعهم إلى التفكير في ذلك.»

«هل عُثر على المورفين في فنجان قهوته فيما بعد؟»

«لا، وقت التحقيق كان كل شيءٍ قد طُمس. أعتقد أن مسألة وضع المورفين في قهوته كانت مجرد افتراض.»

«مَن صبَّ له القهوة التي شرِبها في تلك الليلة؟»

أجابت زوجته: «أنا مَن صببتها.»

«كنتِ جالسةً عند أحد طرفي المائدة وكان هو على الطرف الآخر، هل ظني في محله؟»

«أجل.»

«كيف وصل إليه فنجان القهوة؟»

«ناولته إلى الخادمة، ثم وضعتْه بدورها أمامه.»

«إذن لم يمر عبر أيادٍ أخرى، صحيح؟»

«نعم.»

«مَن كانت الخادمة؟»

فكَّرت السيدة برنتون للحظة.

«لا أعرف الكثير عنها في الواقع. لقد جاءت للعمل في منزلنا منذ أسبوعين فقط.»

«ما اسمها؟»

«جين مورتون، على ما أعتقد.»

«أين هي الآن، هل تعرفين؟»

«لا أعلم.»

قال ستراتون، مستديرًا إلى المأمور: «بالتأكيد ظهرت أثناء التحقيقات، أليس كذلك؟»

كانت إجابته: «أظن ذلك، لكنِّي لست واثقًا.»

دوَّن اسمها في مفكرته.

«كم كان عدد الحضور في حفل العشاء؟»

«كان هناك ستة وعشرون فردًا وفيهم أنا وزوجي.»

«هل تستطيعين أن تذكري لي اسم كل واحد منهم؟»

«أجل، أعتقد ذلك.»

أخذت تردِّد الأسماء وشرع بدوره في تدوينها مع إضافة ملاحظات وتعليقات بعينها على كل اسم منها.

«مَن كان جالسًا إلى جانب زوجك على رأس المائدة؟»

«الآنسة ووكر كانت جالسةً على يمينه، والسيد رولاند على يساره.»

«أرجو أن تغفري لي إذا سألتك إن كان قد سبق أن واجهتكِ أي مشكلة مع زوجك؟»

«مُطلقًا.»

«ألم ينشب أي شجار بينكما قط؟»

ترددت السيدة برنتون للحظة.

«لا، لا أظن أنه وقع بيننا ما يمكن أن يُطلق عليه شجار.»

«ألم يقع أي خلاف بينكما قُبَيْل حفل العشاء؟»

تردَّدت السيدة برنتون مجددًا.

قالت: «من الصعب أن أُسميه خلافًا. لقد دار نقاش بسيط بيننا عن بعض الضيوف ممن كان من المُزمع توجيه الدعوة إليهم.»

«هل اعترض على أيٍّ من الحضور؟»

«حضر رجلٌ أظن أن زوجي لم يكن يحبه، لكن لم يبدِ اعتراضًا على مجيئه؛ بل كان يبدو أن زوجي في الحقيقة شعر أنني ربما خُيِّل لي أنه معترضٌ على مجيئه بناءً على نقاش

بسيط دار بيننا بشأن دعوته، وبعد ذلك، أجْلَس هذا الضيف على يساره، كما لو كان يُصلِح الموقف.»

نظر ستراتون سريعًا لأعلى الصفحة في مفكِّرته، ثم وضع علامة خطأ صغيرةً أمام اسم ستيفن رولاند.

«لقد وقع بينكما خلافٌ آخر قبل ذلك، إن صح تعبيري، هل هذا صحيح؟»

نظرت السيدة برنتون إليه في دهشة.

قالت: «ما الذي يجعلك تظن ذلك؟»

«لأنك ترددت عندما أشرتُ إلى هذه النقطة.»

«حسنًا، وقع بيننا لمرةٍ واحدة ما يمكن أن تصفه بأنه خلافٌ في مدينة لوسرن بسويسرا.»

«هلَّا أخبرتِني به؟»

«أُفضِّل ألا أخبرك.»

«هلَّا أخبرتني إن كان رجل ما هو سبب هذا الخلاف؟»

قالت السيدة برنتون: «أجل.»

«هل كانت الغيرة من طبع زوجك؟»

«لا أعتقد أنه كان غيورًا في العادة. بدا لي حينها أنه لم يكن منصفًا نوعًا ما؛ هذا كل ما في الأمر.»

«هل كان ذلك الرجل في مدينة لوسرن؟»

«قطعًا لا!»

«هل كان في سينسيناتي؟»

«أجل.»

«هل كان اسمه رولاند ستيفن؟»

نظرت السيدة برنتون إلى الصحفي نظرةً خاطفةً مرةً أخرى، وبدت على وشك أن تُفضي بشيء، لكنها راجعت نفسها، واكتفت بقول:

«أجل.»

أسندت ظهرها إلى الكرسي وتنهَّدت.

ثم قالت: «أشعر بإرهاقٍ شديد. إن لم يكن الأمر ذا ضرورة قصوى، أُفضِّل أن أنهي الحوار عند هذا الحد.»

نهض ستراتون على الفور.

وقال: «سيدتي، أنا في غاية الامتنان لكِ لما تكبدته من مشقَّة حتى تجيبي عن أسئلتي التي أخشى أنها بدت لكِ خارج سياق القضية، لكن أؤكد لكِ أنني لم أقصد أن تكون هكذا. والآن، يا سيدتي، سيسعدني كثيرًا إن أخذت عليكِ عهدًا. أتمنى أن تعِديني بمقابلتي حال حضوري لمقابلتك مجددًا، وأنا، من جانبي، أؤكد لكِ إن لم يكن ثمة أمر على قدرٍ خاص من الأهمية لأطلعكِ عليه أو أسأل عنه؛ فلن أتطفل عليكِ.»

«ستسرني رؤيتك في أي وقت، يا سيدي.»

عندما وصل المأمور والصحفي إلى الغرفة الأخرى، قال الأول:

«حسنًا، ما رأيك؟»

فكانت إجابة الصحفي: «أظنها قضيةً مثيرةً للاهتمام.»

«أو، بعبارة أخرى، أنت ترى أن السيدة برنتون امرأة مثيرةٌ جدًّا للاهتمام.»

«لقد عبَّرتَ حرفيًّا، يا سيدي، عن رأيي تمامًا.»

«وفي ظني، ستوفر هذه السيدة البائسة مادةً خصبةً لمقالٍ مثير للصحيفة، أليس كذلك؟»

قال ستراتون، بحماسة أعلى من المعتاد: «دعك من الصحيفة.»

ضحك المأمور. ثم قال:

«أعترف بأن القضية برمتها تبدو لي محيرةً بشدة. هل تبين لك أي جديد في الأفق عن القضية؟»

«سيدي العزيز، سأخبرك بثلاثة أشياء مهمة. أولًا، السيدة برنتون بريئة. ثانيًا، خط الدفاع الذي يتبناه محامياها غير صائب. وثالثًا ...» وحينئذٍ نقر على جيبه في منطقة الصدر ثم أردف قائلًا: «لديَّ اسم القاتل هنا في مفكرتي.»

الفصل الثامن

وجَّه جون سبيد حديثه إلى ويليام برنتون قائلًا: «لقد نجحنا في وضع ستراتون على بداية الطريق إلى حد كبير، وأعتقد أنه سيتقصَّى الحقيقة في هذه القضية. ولكن، في غضون ذلك، يجب ألا نضيع الوقت. لا بد أنك تتذكر أننا، مع كل قدراتنا على الاستطلاع، لم نتوصل إطلاقًا إلى شيءٍ عن القاتل بأنفسنا. أقترح أن نبدأ في التوصل إلى الحقيقة بأنفسنا على النهج نفسه الذي سيسير ستراتون عليه. ثمة احتمال قوي أن نصل إلى لغز هذه القضية بأكملها بسرعة تفوقه بمراحل. فكما أخبرتك من قبل، أنا رجل لي خبرة بالصحافة إلى حد كبير، ولكن مع كل ما لديَّ من قدرات تؤهلني لدخول أي غرفة في أي منزل، وفي أي مدينة، وفي أي بلد، وملازمة المشتبه به ليلًا ونهارًا في الوقت الذي يستحيل فيه على أي شخصٍ أن يتخيل وجودي بالقرب منه؛ لو مع كل هذه القدرات عجزت عن اكتشاف المرتكب الحقيقي للجريمة قبل أن يصل إليه جورج ستراتون، فلن أشهد مطلقًا أن شيكاجو مَنشئي، أو أن الصحافة مهنتي.»

قال برنتون: «مَن في ظنك الشخص الذي يشتبه ستراتون في كونه مرتكب الجريمة؟ فقد أخبر المأمور بأن اسم القاتل معه في مفكرته.»

قال سبيد: «لا أعرف، لكنَّ ثمة شكوكًا بداخلي. كما تعرف، لديه في مفكرته أسماء جميع المدعُوِّين إلى مأدبة العشاء، لكنه ميَّز اسم ستيفن رولاند بعلامتين. أما اسم الخادمة، فقد حدده بعلامة واحدة. وعليه، أظن أنه يعتقد أن ستيفن رولاند هو مرتكب الجريمة. بالطبع تعرف رولاند؛ ما رأيك فيه؟»

أجابه برنتون، بوجهٍ عابس: «أظنه قادرًا تمامًا على فعلها.»

أضاف سبيد قائلًا: «لكن، لا تزال متحيزًا ضد هذا الرجل؛ ولهذا لا تعتبر شهادتك في حقِّه حيادية.»

أجاب برنتون: «أنا لست متحيزًا ضد أي شخصٍ كان. لكنِّي أعرف ذلك الرجل فحسب. إنه شخصٌ لا يُعرَف إلا بالخسة والجُبن. الأمر الوحيد الذي يجعلني أظن عدم ارتكابه للجريمة، هو أنه شخص أجبن من أن يتحمل العواقب في حال القبض عليه. إنه دنيء وقح، لكنه جبان. لا أظن أن لديه من الشجاعة ما يكفي لارتكاب أي جريمة، حتى إن ظن أنه سينتفع من ورائها.»

«حسنًا، ثمة أمر واحد، يا برنتون، هو أنه لا يمكن اتهامك بمحاباة رجل، ولو كان في ذلك أي عزاء لك إذا عرفته، فيمكنك أن تكون على يقين أن جورج ستراتون على الطريق الصحيح.»

أجاب برنتون، بوجهٍ كئيب: «أتمنى له النجاح بكل تأكيد، وإذا جاء برقبة رولاند إلى المشنقة؛ فلن أندب حزنًا على ما حدث.»

قال سبيد: «أتفهَّم ذلك، لكن الآن علينا أن نستعد ونتخذ خطواتٍ بأنفسنا. هل لديك أي اقتراح؟»

«لا، ليس لديَّ ما أقترحه، باستثناء إمكانية أن نؤدي دور المخبر وتتبُّع رولاند.»

«حسنًا، المشكلة في ذلك أننا سنكرر ما يفعله ستراتون نفسه لا أكثر. والآن، سأخبرك باقتراحي. لنفترض أننا طلبنا النصح من ليكوك.»

«مَن هو ليكوك؟ أتقصد الروائي؟»

«روائي؟! لا أظنه كتب من قبلُ أي روايات، لا أتذكر هذه النقطة.»

«أوه، لم أكن أعرف. خُيِّل إليَّ أني تذكرت اسمه مرتبطًا برواية ما.»

«من المرجَّح للغاية أن تكون مُحقًّا. لم أعرف للقصص البوليسية بطلًا أكثر شهرةً منه. لقد كان أعظم محقق فرنسي.»

«ماذا قلت؟! هل مات، إذن؟»

«مات؟! ليس كذلك، إنه هنا معنا. معذرةً، فهمت ما تقصد. نعم، إنه ميت، من وجهة نظرك.»

«أين يمكن أن نجده؟»

«حسنًا، أظنه في باريس. إنه شخص من الطراز الأول يستحق أن تتعرف عليه، على أي حال، ويقضي أغلب وقته حول الأماكن التي كان يتردد عليها قديمًا. في الحقيقة، إذا أردت أن تضمن العثور على ليكوك، فستجده عمومًا أثناء ساعات العمل في الغرفة التي اعتاد التردد عليها وهو في باريس.»

«لنذهب ونقابله، إذن.»

قال سبيد، بعد برهة: «سيد ليكوك، أريد أن أقدِّم لك السيد برنتون، وافد جديد انضم إلينا مؤخرًا من سينسيناتي.»

قال الرجل الفرنسي: «آه، عزيزي سبيد. يسعدني حقًّا أن ألتقي بأي صديقٍ لك. كيف حال شيكاجو الرائعة، باريس الثانية، وكيف تسير جولتك؟ أعظم جولةٍ في العالم، على ما أظن.»

قال سبيد: «حسنًا، تسير وفق ترتيب جيد نوعًا ما، تجوَّلنا من شيكاجو إلى باريس هنا في زمن أقصر كثيرًا مما تستغرقه الرحلة عادةً في الدنيا. إذن، هل لك أن تمنحنا قليلًا من الوقت أم أنك مشغولٌ الآن؟»

«عزيزي سبيد، أنا دائمًا مشغول. طبعي كطبع الناس في باريس الثانية. لا أُضيِّع وقتي، لكن لديَّ دائمًا متسع من الوقت لأتحدث مع أصدقائي.»

قال سبيد: «وهو كذلك. أنا مثل أهل شيكاجو الثانية، لديَّ عمومًا نزعة للمرح والاستمتاع أكثر من العمل، ولكن، رغم ذلك، أقصدك في مهمة عمل.»

سأل ليكوك: «شيكاجو الثانية؟ وأين هي، هلَّا أخبرتني؟»

قال سبيد: «عجبًا! في باريس، بالطبع.»

ضحك ليكوك.

«لا إصلاح يُرجى منكم، يا أهل شيكاجو. وما المهمة التي تقصدني فيها؟»

«مهمتك القديمة، يا سيدي. لُغز يحتاج إلى فكِّ خيوطه. وجاء السيد برنتون إلى هنا راجيًا الاستعانة بخدماتك في قضيته.»

فكان ردُّه: «وما قضيته؟»

بدت السعادة واضحةً على ليكوك لحصوله على مهمة عملٍ حقيقية.

سرد سبيد بإيجاز أحداث القضية، وكان برنتون يتدخَّل من حينٍ لآخر ليصحح له بعض النقاط التي يخطئ فيها. بدا سبيد يعتقد أن هذه النقاط غير جوهرية، لكن ليكوك أخبره بأن سر العمل البوليسي كله يكمن في الالتفات إلى التفاصيل البسيطة.

قال ليكوك، في حزن: «حسنًا، لا توجد معضلة حقيقية في فك خيوط ذلك اللغز. كنت أتمنى لو أنها قضية عسيرة، لكن، كما تعلم، من واقع خبرتي في العالم القديم، ومع الامتيازات التي يتمتَّع الفرد مِنَّا بها في هذا العالم؛ فإن الأمور التي قد تستعصي على أهل الدنيا تبدو لنا يسيرةً للغاية. والآن، سأوضِّح لكما مدى بساطة الأمر.»



المحقق.

صاح سبيد: «يا إلهي! قطعًا لا تقصد من كلامك أنك ستفسر اللغز، هكذا، دون أدنى تردد، في الوقت الذي أنهكنا أنفسنا فيه طويلًا، ودون أن نفلح؟»

رد المحقق الفرنسي: «في الوقت الحالي، لستُ مستعدًّا لأن أُقر بمرتكب هذه الجريمة. هذه مسألة تفاصيل. والآن، لنرَ ما نعرف، ونصل منه، إلى ما لا نعرف. الحقيقة الوحيدة التي نحن على يقين منها بناءً على إفادة الطبيبَين من سينسيناتي، هي أن السيد برنتون مات مسمَّمًا.»

قال سبيد: «حسنًا، ثمة وقائع أخرى كثيرة أيضًا. ثمة واقعة أخرى؛ اتهام زوجة السيد برنتون بارتكاب الجريمة.»

قال ليكوك: «سيدي العزيز، هذا أمر لا شأن له بما نحن بصدده الآن.»

قال سبيد: «أجل، أتفق معك. بل أراه بلا أي صلة تمامًا.»

قطَّب برنتون جبينه لِما سمعه، وطفا على السطح من جديد استياؤه القديم من تطاول ذلك الرجل من شيكاجو.

واصل الرجل الفرنسي تدوين النقاط على سبَّابته الطويلة.

«والآن، ثمة طريقان ربما كان أحدهما سببًا في وقوع ما حدث. أولهما، أن يكون السيد برنتون هو من تناول السم بنفسه، وثانيهما، أن شخصًا ما قد وضع له السم.»

قال سبيد: «هذا صحيح، وثالثهما، أن السم ربما وُضِع عن طريق الخطأ، يبدو أنك لم تضع هذا الاحتمال في الحُسبان.»

أجابه الفرنسي بهدوء: «لم أضعه في الحسبان نظرًا لاستبعاد حدوثه. لو كان هناك أي مصادفات في الأمر؛ كأن يكون هناك سم في السكر، على سبيل المثال، أو في بعض أصناف الطعام المقدَّمة؛ لأُصيب آخرون بالتسمم خلاف السيد برنتون. وحقيقة أن شخصًا واحدًا من بين ستة وعشرين آخرين قد مات مسمومًا، وحقيقة أن هناك كثيرين سوف ينتفعون من موته، تشيران، من وجهة نظري، إلى وجود جريمة قتل عمد، ولكن حتى نتثبَّت من هذا، سأوجِّه إلى السيد برنتون سؤالًا. سيدي الفاضل، هل تناولت هذا السُّمَّ بنفسك؟»

أجاب برنتون: «قطعًا لا.»

«إذن، فنحن أمام حقيقتين. أولهما، أن السيد برنتون مات مسمومًا، والثانية، أن مَن سممه هو شخص له مصلحة في موته. سنبدأ الآن. عندما جلس السيد برنتون على العشاء كان في حالة جيدة تمامًا. وعندما نهض من ذلك العشاء كان يشعر بإعياء. ولهذا ذهب إلى الفراش. لم يرَ أي شخص آخر سوى زوجته بعدما غادر مائدة العشاء، ولم يتناول أي شيء في الفترة بين مغادرته لمائدة العشاء واللحظة التي غاب فيها عن الوعي. وعليه، لا بد حتمًا أن السم قد وُضِع للسيد برنتون وهو على مائدة العشاء. هل أنا مُخطئ؟»

أجاب سبيد: «لا، على ما يبدو أنك مُحق.»

«على ما يبدو؟! عجبًا! الأمر واضحٌ وضوح الشمس. لا يمكن أن يكون ثمة أي خطأ.»

قال سبيد: «لا بأس، أكمل. ماذا حدث بعد؟»

«ماذا حدث بعد؟ اجتمع على المائدة ستة وعشرون شخصًا، إضافةً إلى خادمتين لخدمتهم، وبذلك يصبح إجمالي العدد ثمانيةً وعشرين. أظنك قلت إنه كان هناك ستة وعشرون شخصًا، من بينهم السيد برنتون.»

«هذا صحيح.»

«عظيم. هناك شخصٌ واحد من بين أولئك السبعة والعشرين هو من سمم السيد برنتون. هل تتابعان معي تسلسل الأحداث؟»

أجاب سبيد: «نعم، نتابع معك بكل دقةٍ مثلما كنت أنت تتتبَّع أثر مجرم! استمر.»

«عظيم، ثمة أمور كثيرة واضحة. كل ما سبق حقائق وقعت، وليست نظريات. الآن، ما الشيء الذي عليَّ أن أفعله لو كنت في سينسيناتي؟ كنت سأبحث إذا ما كان ضيفٌ واحد أو أكثر قد استفاد بأي شيءٍ من موت مضيفهم. بعد ذلك، كنت سأتتبع المشتبه فيهم. وكنت سأطلب من رجالي أن يتحققوا مما فعله كل شخص مشتبه فيه قبل وقت وقوع الجريمة بشهر. لا بد أن يكون مرتكب الجريمة، أيًّا كانت هُويته، قد قام ببعض التحضيرات قبل الإقدام على فعلته. وفعل ذلك الشخص شيئًا آخر، أيضًا، كما تقولون، في أمريكا ليطمس آثاره. عظيم للغاية. يمكن تتبُّع هذه التحركات بسهولةٍ ويسر بواسطة محقق فطن. لعلي أُعيِّن في الحال سبعةً وعشرين شخصًا من أفضل مَن أعرف من الرجال لاقتفاء أثر أولئك السبعة والعشرين شخصًا.»

علَّق ذلك الرجل من شيكاجو: «أرى ذلك تتبعًا لظلِّهم إلى حدٍّ بعيد.»

«سيكون الأمر سهلًا للغاية. فالشخص الذي ارتكب الجريمة من المؤكد أنه، عندما ينفرد بنفسه في غرفته، يقول شيئًا، أو يفعل شيئًا، من شأنه أن يبيِّن للمخبر التابع لي أنه المجرم. ولهذا، أيها السادة، إذا أخبرتموني من هم أولئك السبعة والعشرون شخصًا؛ فسأخبركم مَنْ دسَّ السم للسيد برنتون، في غضون ثلاثة أيام أو أسبوع من الآن.»

قال سبيد: «يبدو أنك على يقين تام من ذلك.»

«على يقين من ذلك؟! الأمر تافه للغاية. إنها مجرد مسألة وقت. إذا وُجد خلال المحاكمة، على سبيل المثال، أن السيدة برنتون مذنبة، وصدر ضدها حُكم، فالطرف المذنب، بلا شك، سوف يصدر منه شيء يكشفه بمجرد أن يختلي بنفسه. فلو كان رجلًا يرغب في الزواج من السيدة برنتون، فسيجتاحه الحزن لما حدث. سيعتصر يديه ويحاول أن يفكر فيما يمكن فعله ليحُول دون تنفيذ الحكم. سيحاور نفسه ليرى إذا ما كان من الأحرى أن

يُسلِّم نفسه ويعترف بالحقيقة، وإذا كان جبانًا، فسيصل إلى قناعة في داخله بأن يحجم عن فعل ذلك، ولكن سيحاول الحصول لها على عفو، أو على الأقل تخفيف حكم الإعدام إلى السجن المؤبد. ربما سيظهر بين عامة الناس هادئًا رابط الجأش، ولكن عندما يدخل غرفته، ويغلق بابه، ويطمئن أن أحدًا لن يراه، ويظن أنه بمفرده، حينها فقط سيحاسب نفسه. حينئذٍ ستخونه عواطفه ومشاعره. الأمر تافه للغاية، كما أخبرتكم، وقبل النطق بالحكم بفترة طويلة، سأخبركم باسم القاتل.»

قال سبيد: «رائع، متفقون إذن؛ سنلقاك في غضون أسبوع من الآن.»



جين مورتون.

قال ليكوك: «يؤلمني أن أزعجتكما. لكن ما إن يصلني التقرير من رجالي، فسأتواصل معكما وسأطلعكما على النتائج. وخلال أيامٍ معدودات، سأخبركما باسم القاتل.»

رد سبيد: «إلى اللقاء، إذن، حتى أراك مجددًا.» وعندئذٍ غادر سبيد وبرنتون.

قال برنتون: «يبدو واثقًا تمامًا من نفسه.»

«سينفِّذ ما يقوله، بإمكانك الاعتماد على ذلك.»

لم يكن الأسبوع قد انقضى بعدُ عندما التقى السيد ليكوك بالسيد جون سبيد في شيكاجو.

قال السيد سبيد: «يُخيَّل لي من نظرة الرضا التي تشع من وجهك، أنك قد نجحت في حل اللغز.»

أجاب الفرنسي: «إذا كانت هيئتي تعكس شعورًا بالرضا، فهذا خطأ غير مقصود.»

«ألم تتوصل إذن لأي شيء؟»

«على النقيض، الأمر واضح تمامًا كمبانيكم الضخمة هنا. عدم رضائي ليس نابعًا من ذلك السبب، وإنما لأن اللغز بسيط لدرجة أن من السفاهة أن أشعر بالرضا بسببه.»

«مَن الشخص إذن؟»

رد الفرنسي: «القاتل هو شخصٌ يبدو أنه لم يخطر ببال أحد، ولكنه الشخص الذي كان من الواجب أن تحوم الشكوك حوله من البداية. الشخص الذي نال شرف قتل السيد برنتون مسمومًا ليس سوى الخادمة، جين مورتون.»

الفصل التاسع

صاح سبيد: «جين مورتون! مَن هي؟»

«لعلك تتذكرها، إنها تلك الفتاة التي حملت القهوة من زوجة السيد برنتون إلى السيد برنتون.»

«وهل أنت متأكد من أنها الجانية؟»

لم يُجِب المحقق العظيم، واكتفى بإيماءة معبرة لها طابع فرنسي قليلًا، وكأن السؤال لا يستحق التعليق عليه.

سأل سبيد: «عجبًا! ما دافعها إلى ذلك؟»

لأول مرة خلال فترة معرفته به بدت بعض الحيرة على ذلك الوجه المفعم بالحماس الذي يُميِّز هذا الفرنسي المتقلب المزاج.

ثم قال: «أنتم أذكياء كما تدَّعون، يا أهل شيكاجو، وقد أصبت في لحظة النقطة الوحيدة التي تحيرنا.»

رد سبيد: «سيدي العزيز، هذه هي النقطة الأساسية في القضية. الدافع وراء الجريمة هو أول شيء يجب البحث عنه، كما يتراءى لي. لقد قلت ذلك كثيرًا بنفسك. إن لم تنجح في التوصل إلى الدافع الذي دفع جين مورتون إلى تسميم سيدها، فإنك لم تُنجز إلا القليل في نظري.»

«تمهَّل، أنت تقول ذلك قبل أن تعرف التفاصيل. أنا على يقين من أننا سنكتشف الدافع. ما أعرفه الآن هو أن جين مورتون هي الشخص الذي وضع له السم في فنجان قهوته.»

«كان الأمر سيتطلَّب منها قدرًا كبيرًا من الشجاعة لتفعل ذلك في حضور ستة وعشرين شخصًا مجتمعين حول المائدة. لقد أغفلت، يا سيدي العزيز، أنها كان عليها أن تجتاز المائدة بأكملها على امتدادها، بعد أن أخذت الفنجان، وقبل أن تعطيه إلى السيد برنتون.»

«نصف الحضور كانوا يديرون ظهورهم لها، وأستطيع أن أؤكد لك أن النصف الآخر لم يلتفتوا إليها. إذا كان السم جاهزًا، فمن السهل أن يُدَس في فنجان القهوة. كان هناك متسع من الوقت لذلك، وهكذا جرى تنفيذ الجريمة.»

«اسمح لي أن أسألك، كيف توصَّلت إلى ذلك الاستنتاج؟»

«قطعًا، وبكل تأكيد، يا عزيزي. لقد أفاد المخبرون التابعون لي أنهم ظلوا ملازمين ليلًا ونهارًا لكل فردٍ من السبعة والعشرين شخصًا ممَّن كان لا بد من اقتفاء أثرهم. ولكن لم تصدر تصرفات مريبة إلا من اثنين فقط منهم. كان هذان الشخصان هما جين مورتون وستيفن رولاند. الحقيقة التي تبرر اضطراب ستيفن رولاند هي حبه الواضح لزوجة السيد برنتون. لكن التغيير الذي طرأ على جين مورتون كان رهيبًا. إنها تعاني من وخز شديد في الضمير لا طائل منه. لم تعد مجددًا للعمل، ولكن قبعت في غرفةٍ في واحد من أفقر ربوع المدينة، ولم تغادر هذه الغرفة مطلقًا إلا ليلًا. كل تصرفاتها تعكس خوفها من الشرطة، خوفٌ من أن يُقتفَى أثرها لما ارتكبته. تشتري الجريدة كل مساء، ثم تغلق الباب بالمزلاج بمجرد أن تدخل غرفتها، ثم تقرأ كل كلمة عن أخبار الجريمة والدموع تنهمر من عينيها. وذات مساء، عندما خرجت لتشتري نسخةً من الجريدة، والطعام الذي تحتاج إليه لليوم التالي، وجدت نفسها فجأةً أمام شرطي عند الناصية. لم يكن الشرطي ينظر إليها مطلقًا، ولا يبحث عنها، ولكنها فرَّت هاربة، وأخذت تركض كغزالٍ هارب، وتستدير وتنعطف بين الأزقة والشوارع الخلفية إلى أن وصلت إلى غرفتها عبر طريقٍ ملتوٍ. حبست نفسها في الغرفة، وظلت من دون زادٍ طوال اليوم التالي بدلًا من أن تخرج مرةً أخرى. بعد أن أوصدت باب غرفتها، ألقت نفسها على الفراش من هول الفزع الذي رأته، وصرخت قائلةً: «يا إلهي! لماذا فعلت ذلك؟ لماذا فعلت ذلك؟ سيكشفون أمري بالتأكيد. إذا ثَبَتت براءة السيدة برنتون، فسيطاردونني في اليوم التالي. لقد فعلت فَعلتي لأعوِّض جون عما قاساه، ولكن لو علم جون، لن يتحدث إليَّ مجددًا».»

سأل سبيد: «من هو جون؟»

رد المحقق: «للأسف، هذا ما لا أعرفه. عندما نكتشف من هو جون، سنكتشف حينها الدافع وراء ارتكاب الجريمة.»



يا إلهي! لماذا فعلت ذلك؟

«في تلك الحالة، لو كنت مكانك، فسأسعى للعثور على جون في أسرع وقتٍ ممكن.»

«أجل، يا سيدي العزيز، هذا بالضبط ما يجب فعله، وهناك مُخبر الآن تابع لي يسعى جاهدًا لاكتشاف هُوية جون. سينجح في مهمته في غضون أيام على الأرجح. لكن ثمة سبيلًا آخر لمعرفة هُوية جون، ولعل بإمكانك أن تساعدني فيه.»

«ما هذا السبيل الآخر؟»

«ثمة رجلٌ واحد يعرف يقينًا من هو جون، وهذا الرجل هو السيد برنتون. والآن، أظن أنه ربما لأنك تعرف برنتون أكثر مني، فلن تمانع في أن تسأله مَن هو جون.»

قال سبيد: «سيدي العزيز، برنتون ليس صديقًا مقربًا لي، ولا أعرفه إلا بالقدر الكافي الذي يشعرني بأنه إذا كان ينبغي إجراء أي استجوابٍ معه، فمن الأفضَل أن يتولَّى هذه المهمة شخصٌ آخر.»

سأله المحقق: «أنت لا تهابه، صحيح؟»

«أهابه؟ قطعًا لا، لكن أؤكد لك أن السيد برنتون ذو طبع حساس نوعًا ما، ويميل إلى أخذ الكلام على محمل الإهانة. وجدته على هذا الحال في عدة مواقف. والآن، لمَ لا تذهب إليه وتقابله ما دمت قد أخذت أمر هذه القضية بالفعل على عاتقك؟»

قال الفرنسي: «أظن أنه لا مفر من ذلك إذا كنت لا تنوي تولِّي هذه المهمة.»

«لا، لن أتولاها.»

«لكنك لن تُمانع في أن تذهب معي، أليس كذلك؟»

«من الأفضل لك أن تقابل برنتون وحدك. لا أظن أنه سيبالي باستجوابه أمام شهود، كما تعرف.»

«إلى اللقاء، إذن؛ سأعرف مِن السيد برنتون مَن يكون جون.»

أجاب سبيد، بينما يهم ليكوك بالانصراف: «أتمنى لك حظًّا موفقًا بالتأكيد.»

وجد ليكوك برنتون بصحبة فيريس. بدت روحه المتشائمة متشككةً نوعًا ما إزاء الروايات التي وصلته عن تأثير سبيد وبرنتون، مجتمعين معًا، على ذلك الصحفي من شيكاجو. ولكن ظلت القضية تستحوذ على اهتمامه، وعلى الرغم من إصراره على موقفه بأن لا نفع يُرجى من هذه المحاولات، حتى إن أمكن فتح محور للتواصل بين العالمين، أنصت فيريس بوقاره المعتاد إلى ما كان سيشرع برنتون في الإدلاء به.

قال برنتون عندما رأى الفرنسي: «خيرًا، هل تحمل لي أي أخبار؟»

«أجل، أحمل لك أخبارًا. لديَّ أخبار سأدلي إليك بها، لكن حاليًّا أريد بعض الأخبار منك.»

أجاب برنتون: «ليس لديَّ ما أخبرك به.»

«إذا لم يكن لديك، فهل تتعهَّد لي بالرد على أي أسئلة سأطرحها عليك، ولن تمتعض إذا بدت الأسئلة شخصية؟»

قال برنتون: «بالتأكيد، يسعدني أن أجيب عن أي سؤال ما دام له علاقة بالقضية.»

«عظيم، إذن، هذا السؤال مرتبط ارتباطًا وثيقًا بالقضية. هل تتذكر جين مورتون؟»

«أتذكرها بالطبع، فهي واحدة من الخادمات اللاتي يعملن لدينا. لكن لا أعرف عنها سوى النزر اليسير.»

«هذا تحديدًا ما أسعى لمعرفته. هل تعرف أي شيءٍ عنها؟»

«لا؛ لقد كانت تعمل لدينا ولكن منذ أسبوعين فقط، حسب ظني، أو ربما منذ شهر. كانت زوجتي هي من تهتم بتلك التفاصيل، بكل تأكيد. كل ما كنت أعرفه أن الفتاة موجودة لدينا، هذا كل ما في الأمر.»

نظر الفرنسي نظرة ارتيابٍ شديد أثناء حديث برنتون، في الوقت الذي بدا فيه الأخير غاضبًا نوعًا ما.

صاح قائلًا: «من الواضح أنك لا تصدقني؟»

مرةً أخرى أومأ رجل المباحث إيماءته المعتادة، ثم قال:

«آه، معذرة، أنت مخطئ تمامًا. جئت لأُعلِمك بهذا الخبر. جين مورتون هي مَن قتلتك. تقول إنها فعلت ذلك في جزء منه لأجل جون — بصرف النظر عمَّن هو جون — وفي جزء آخر بدافع من الانتقام. والآن، لا أحد سواك بالطبع بوسعه أن يعطيني معلوماتٍ عن الدافع وراء هذه الجريمة. لا شك أن تلك الفتاة كان لديها دافع، وأود أن أعرف ما هو هذا الدافع.»

شرد برنتون بتفكيره للحظات قليلة، ثم فجأةً خطر له شيء.

«تذكرت الآن حادثةً وقعت قبل أسبوع أو أسبوعين من عيد الميلاد، قد تكون لها صلة بالقضية. ذات ليلةٍ سمعتُ — أو خُيِّل إليَّ أنني سمعت — صوت حركة في الأسفل، في الوقت الذي اعتقدت فيه أن الجميع قد خلد إلى النوم. أمسكت بمسدسي، ثم تسللت بحذرٍ عبر درجات السُّلم. بالطبع لم أحمل مصباحًا معي؛ إذ لو أن لصًّا بالمنزل، فلم أكن أرغب في أن أُظهِر نفسي له. بينما كنت أسير عبر الردهة المؤدية إلى المطبخ، رأيت ضوءًا في الداخل، ولكن بمجرد أن سَمعوني أتَّجه ناحيتهم انطفأ الضوء. حين وصلت إلى المطبخ، لاحظت رجلًا يحاول الهرب من الباب الذي يفضي إلى سقيفة تخزين الفحم. أطلقت النار عليه مرتين؛ فخر على الأرض يئن من الألم. ظننت أنني قد أصبت لصًّا بكل تأكيد، لكن اتضح أن لا شيءٍ من هذا قد حدث. كان مجرد شاب جاء لمقابلة واحدة من الفتيات في ساعة متأخرة. أشك الآن أن الفتاة التي أتى لمقابلتها كانت جين مورتون. بطبيعة الحال، جلبت الضوضاء الفتاتين إلى هناك، ولم أُجرِ تحقيقًا على الإطلاق في هذا الأمر أو أحاول أن أعرف مَن الفتاة التي جاء لزيارتها. فقد كانتا فزعتين، وكان الشاب نفسه في حالة هلعٍ شديد. ظن للحظةٍ أنه قد قُتل. لكنه أصيب فحسب في ساقه؛ ولهذا أرسلته إلى منزل الطبيب الذي يباشر مثل هؤلاء المرضى لعدم رغبتهم في الذهاب إلى المستشفى. ولم أهتم بإرساله إلى المستشفى؛ لأنني خشيت أن يصل نبأ الحادثة إلى الصحف، وتحدث ضجة حوله. الحادثة برمتها لم تكن مقصودة، وذلك ما أدركه الشاب، وكذلك الفتاتان، في ظني؛ على الأقل لم ألاحظ مطلقًا أي شيءٍ في سلوكهن يثبت العكس.»



سأل فيريس: «كيف تبدو جين مورتون؟»

«فتاة طويلة شعرها بني داكن، لها عينان ضيقتان وسوداوان.»

قال فيريس: «نعم، أتذكرها وهي تقصد الغرفة حيث جسدك الراقد صبيحة عيد الميلاد. اندهشتُ حين خرجت من الغرفة وهي هادئة تمامًا ومتماسكة، وغير متفاجئة بما حدث على الإطلاق.»

قال برنتون: «كل ما بوسعي قوله هو أنني لم ألاحظ في سلوكها أي شيء مطلقًا يشير إلى ضغينة بداخلها بسبب ما قد حدث. كنت أنوي أن أعطي ذلك الشاب تعويضًا سخيًّا عن إصابته، لكن ما حدث بالطبع عشية عيد الميلاد حال دون ذلك؛ لقد غاب عن ذهني حقًّا كل ما يخص هذه الحادثة وإلا لكنت أخبرتك بها من قبل.»

قال ليكوك: «إذن، الموقف بات واضحًا لا يحتاج إلى تأويل. تلك المرأة المشاكسة ذات العينين السوداوين قتلتك انتقامًا منك.»

الفصل العاشر

كان واضحًا لجورج ستراتون أن الوقت لن يتسع له قبل بدء المحاكمة لإثبات أن ستيفن رولاند هو الجاني. علاوةً على أنه دخل في حالةٍ ذهنية غريبة استعصى عليه أن يفهمها هو نفسه. ففي اللحظة التي جلس فيها ليفكر في خطةٍ للإمساك بهذا الرجل الذي كان واثقًا في أنه من ارتكب الجريمة، انتابته حيرة غريبة لم يألفها. بدا أن شيئًا ما يخبره بأنه على الطريق الخطأ. وأصبح هذا الهاجس أكثر إلحاحًا عليه لدرجةٍ أصابته بالحيرة، وجعله يتشكك جديًّا في قواه العقلية. فمتى اختلى بنفسه في غرفته، ساورته الشكوك وسيطر عليه شعورٌ بأنه يسلك طريقًا غير صحيح. وكان هذا الإحساس يشتد وطأةً في الأوقات التي يبحث فيها عن أدلة أخرى لحل اللغز، وحاول ذات مرة أن يصل إلى مكان الخادمات اللاتي كُنَّ يعملن لدى عائلة برنتون. لكن ما يدعو إلى العجب، أنه في اللحظة التي بدأ فيها البحث عنهن، بدا أن ذهنه قد أصبح أكثر صفاءً وراحة، وما إن حدث ذلك، حتى عاد الاعتقاد القديم بأن ستيفن رولاند هو الجاني للسيطرة. لكن في اللحظة التي حاول فيها أن يتتبع ما لديه من خيوط في ذلك الاتجاه، وجد نفسه متحيِّرًا وهاجمته الشكوك من جديد؛ ومِن ثَم باتت كل محاولةٍ يُقدِم عليها تبدو فاشلة. لم يألف جورج ستراتون هذه الحالة الذهنية التي وجد نفسه عليها حتى باتت تراوده أفكار جادة بالتخلي عن القضية بأكملها والعودة إلى شيكاجو. وحدَّث نفسه قائلًا: «لقد وقعت في غرام هذه السيدة وسأصاب بالجنون إذا بقيت هنا أكثر من ذلك.» ثم تذكَّر الثقة التي أبدتها في قدرته على كشف لغز هذه القضية، وهذا بدوره ما شجَّعه وحفَّزه على المواصلة.

فُقِد كل أثر لهؤلاء الفتيات على ما يبدو. تردَّد جورج ستراتون في الاستعانة بمحقق من سينسيناتي، خشية أن يتسرب خبر ما اكتشفه إلى صحافة سينسيناتي. حينئذٍ اتهم

نفسه بعدم الوفاء للسيدة برنتون؛ إذ جعل الأولوية لمهمته الصحفية على حساب واجبه تجاهها. كان يمزقه ألمًا ذلك الصراع المحتدم داخله بين أفكاره ومشاعره، والذي حسمه في النهاية بأن قرر ترك القضية برمتها والعودة إلى شيكاجو. جهَّز حقيبة سفره وعزم النية على المغادرة في تلك الليلة عائدًا إلى المدينة الكبيرة، سواء بدأت المحاكمة أم لم تبدأ. كان قبل ذلك قد وصف لأحد الأطباء البارزين الأعراض التي ظهرت عليه، وأخبره ذلك الطبيب بأن القضية تدفعه دفعًا إلى الجنون، وأن أفضل ما يمكن فعله هو المغادرة في الحال إلى مكانٍ آخر. فلم يكن يملك لنفسه نفعًا، وربما ينتهي به الحال إلى الجنون.

في الوقت الذي انهمك فيه جورج ستراتون في تجهيز حقيبة سفره في الغرفة بمفرده، حسبما كان يعتقد، كان الحوار التالي دائرًا بجانبه.

قال سبيد: «لا فائدة مما نفعل. نحن نُربِكه فحسب، ولا ننفعه في شيء. الشيء الوحيد الذي يجب أن نفعله الآن هو أن نتركه بمفرده. إذا حقق في دور رولاند في القضية، فسُرعان ما سيكتشف بنفسه أنه على الطريق الخطأ، وحينها سيسلك المسار الصحيح.»

قال برنتون: «هذا صحيح، لكن لم يتبقَّ سوى أيام قلائل على نظر القضية. وإذا كانت هناك أي خطوة يجب اتخاذها، فلا بد أن تُتخذ الآن.»

قال سبيد: «لا أتفق معك في ذلك. ربما يسير كل شيء في المحاكمة على نحوٍ جيد، ولكن حتى إن لم يكن هكذا، فلا يزال أمامنا بعض الوقت. أنت ترى كيف أفسدنا الأمور بتدخُّلِنا. لقد أضلَّنا أول نجاح لنا معه عن الطريق الصحيح. ظننا أن بوسعنا فعل أي شيء، ولكننا في الواقع فعلنا ما هو أسوأ من لا شيء؛ لأننا أضعنا كل هذا الوقت الثمين. لو تُرك ليستكمل طريقه الخاص في التحقيق، لتحرى الأمر في مسألة ستيفن رولاند، ولوجد أنه لم يكن ثمة سبب لشكوكه فيه. لكنه لم يُنجز شيئًا كما هو واضح. إذا تُرِك بمفرده، فسيبقى على ظنه بأن ستيفن رولاند هو الجاني. جميع محاولاتنا لاقتياده نحو سكن جين مورتون ذهبت سُدًى. وكما ترى الآن، فهو على وشك الرحيل والعودة إلى شيكاجو.»

قال برنتون، في قنوط: «حسنًا، دعه يذهب، إذن.»

أجاب سبيد: «من كل قلبي أرى ذلك، لكن على أي حال دعنا نتركه بمفرده.»

قبل أن ينطلق القطار في تلك الليلة، حدَّث ستراتون نفسه بأنه إنسان جديد. لقد عاد جورج إلى نفسه مجددًا. كانت لديه قناعة راسخة بأن ستيفن رولاند هو الجاني، وتساءل حائرًا لمَ سمح لعقله بأن يشرد بعيدًا عن ذاك الخيط ويضيع وقته في هواجس أخرى، تبيَّن له حينها أنها لم يكن لها مبرر حقيقي. شعر أن الوقت لم يسمح له قبل ذلك للتحقيق في

الأمر بصفةٍ شخصية، لكنه امتدح نفسه كونه قد عرف بالضبط الرجل الذي سيسند إليه مهمة اقتفاء أثر رولاند، وبدلًا من أن يتجه إلى شيكاجو، بعث الرسالة التالية:

قابِلني صباح غد، دون تأخير، عند جيبسون هاوس. يُرجى الرد.

قبل حلول منتصف الليل كان الرد قد وصله، وفي صباح اليوم التالي قابل رجلًا يثق فيه ثقةً عمياء، ويمتاز، حسب قوله، بتلك المَلَكة النادرة التي لا تُقدَّر بثمن في التكتُّم على الأسرار.

قال ستراتون وهو يناول الرجل الآخر صورةً لستيفن رولاند: «هل ترى هذه الصورة؟ لا يسعني الآن حصر متاجر العقاقير التي تُقدَّر بالمئات هنا في سينسيناتي، لكن أريد منك أن تُعدَّ قائمةً بها، ولا تستثني منها مطلقًا المتاجر الأكثر انزواءً في المدينة. أريد منك زيارة كل متجر للعقاقير في المدينة، وعرض هذه الصورة على صاحب المتجر والموظفين العاملين به، والاستفسار عما إذا كان ذلك الرجل قد اشترى أي مواد كيميائية خلال الأسبوع أو الأسبوعين السابقين لعيد الميلاد. واعرف العقاقير التي اشتراها، ومن أين اشتراها، ثم ائتني بهذه المعلومات.»

كان السؤال: «ما المهلة التي ستمنحني إياها لهذه المهمة، يا سيد ستراتون؟»

«لك ما تشاء من الوقت. أريد إنجاز المهمة بدقة وبكل حذافيرها، وكما تعرف، السكوت من ذهب في قضيةٍ كهذه.»

رد الرجل الآخر، وهو يضع الصورة في جيبه الداخلي ويزرره: «كفَّيت قولًا.» ثم غادَر الغرفة.

ليس هناك ما يدعو إلى تقديم تقريرٍ مُفصَّل عن المحاكمة. أي شخص يدفعه فضوله لمعرفة القضية يمكنه العثور على التفاصيل كاملةً في ملفات التحقيقات لأي صحيفة داخل البلد. ظهرت السيدة برنتون بوجهٍ شاحب للغاية وهي تجلس داخل قفص الاتهام، ولكن جورج ستراتون كان يرى أنه لم يرَ في حياته امرأةً في جمالها. خُيِّل إليه أن أي شخص داخل تلك القاعة المزدحمة يمكنه الإقرار في لحظةٍ بأنها ليست من ارتكبت هذه الجريمة التي نُسِبت إليها، وتطلَّع إلى هيئة المحلفين المؤلفة من اثنَي عشر رجلًا يحسبهم من صفوة الرجال، وتساءل عن رأيهم في هذه القضية.

زعم الدفاع أن ليس من اختصاصهم كشف مرتكب الجريمة. فهذا من اختصاص الادِّعاء. وقد أكَّد السيد بنهام أن الادعاء قد أخفق إخفاقًا ذريعًا في إثبات ذلك. ولكن، دعمًا



ما المهلة التي ستمنحني إياها لهذه المهمة؟

للادعاء، أبدى السيد بنهام استعداده التام لتوضيح كيف لقي السيد برنتون حتفه. ثم استُدعي الشهود، الذين أثاروا دهشة السيدة برنتون، حين شهدوا بأن زوجها كان طوال حياته لديه نزعة إلى الجنون. وأُثبت على نحو قاطع ونهائي أن بعض أسلافه قد تُوفوا في مصحةٍ للأمراض النفسيَّة، وذُكِر أن أحدهم قد مات منتحرًا. وأخرج الدفاع بعض الكتب من مكتبة السيد برنتون، من بينها كتاب لفوربس وينسلون بعنوان «العقل والدماغ»؛ ليثبت أن برنتون قد بحث في موضوع الانتحار.

كان الأمر الذي أصدره القاضي محايدًا تمامًا. وكان مفاده: إذا ارتأت هيئة المحلفين أن الادعاء قد أثبت أن السيدة برنتون هي مَن ارتكبت الجريمة، أصبح لزامًا عليهم أن



في قفص الاتهام.

يصدروا حكمًا بأنها مذنبة، وإذا تراءى لهم خلاف ذلك أصبح لزامًا عليهم النطق ببراءتها؛ وعليه انسحبت هيئة المحلَّفين للتشاور.

وبينما كانت هيئة المحلفين تهم بمغادرة قاعة المحكمة، غشيت الكآبة جميع مَن كانوا على صلة طيبة بالسجينة الحسناء.

رغم الشهرة الكبيرة للمحاميَين بنهام وبراون، اجتمع كل الحضور على أن أداءهما في الدفاع كان ضعيفًا للغاية. أما الادعاء، على الجانب الآخر، فقد أدير باقتدار منقطع النظير. لقد أثبت الادعاء أن السيدة برنتون هي المنتفع الأول من موت زوجها. فصندوق التأمينات وحده سوف يضيف خمسةً وسبعين ألف دولار إلى الأموال التي ستصبح تحت

تصرفها. ثمة عددٌ من النقاط البسيطة التي لم يُعِرها ستراتون اهتمامه عظُمت أهميتها في عينه، واتضح فيما بعدُ أنها وثيقة الصلة بالقضية. اعترف ستراتون لنفسه، للمرة الأولى، بأن الادعاء قد أورد حُجَّةً دامغةً مبنيةً على أدلة ظرفية. والدفاع، كذلك، أظهر أداءً ضعيفًا يرثى له لدرجة أضافت إلى قوة الادعاء. كان متوقعًا من بنهام أن يقيم مرافعةً يُشهد لها، لكنه لم يرقَ إلى مستوى الحدث، وكما قال شخص يعرفه، كان بنهام يعتقد بوضوح أن موكلته مذنبة.

في الوقت الذي انسحبت فيه هيئة المحلفين للتشاور، شعر كل فردٍ داخل قاعة المحكمة أن ثمة أملًا طفيفًا لهذه السجينة، وتعاظم شعورهم بذلك حين أُعلن في المحكمة، بعد مرور لحظات قليلة، بينما كان القاضي يتهيأ لمغادرة منصة المحكمة، أن هيئة المحلفين قد اتفقت على الحكم.

سمع ستراتون، وسط السكون الذي ساد قاعة المحكمة، محاميًا يهمس إلى محامٍ آخر قائلًا إن «مصيرها محتوم.»

صمتٌ مطبق عمَّ القاعة بينما كانت هيئة المحلفين تصطف ليجلس كلٌّ منهم في مكانه على مهل، ثم نهض رئيس هيئة المحلفين.

كان السؤال: «أعضاء هيئة المحلفين الموقَّرين، هل أجمعتم على حكمٍ في هذه القضية؟»

أجاب رئيس هيئة المحلفين: «أجل.»

«هل ترَون السجينة مذنبةً أم غير مذنبة؟»

وكانت الإجابة الواضحة: «غير مذنبة.»

سادت في البداية لحظةٌ من الهدوء، ثم دوَّت موجة من التصفيق الحار سُرعان ما أُخمدت.

وأُخلي سبيل السيدة برنتون.

الفصل الحادي عشر

جلس جورج ستراتون مذهولًا لبرهةٍ في قاعة المحكمة، قبل أن يتطرَّق إلى فكره الشخصية المحورية في هذه المحاكمة، ثم نهض ليذهب إليها، لكنه وجد رولاند قد سبقه إلى هناك. سمعها تقول: «أحضر لي عربةً في أسرع وقت، وخذني من هنا.»

لذا عاد ستراتون إلى الفندق المقيم فيه لمقابلة ذاك المحقق من شيكاجو. لم يكن في جعبة الأخير ما يخبر به ستراتون. أخبره بعدد متاجر العقاقير التي زارها، لكن من دون أن تثمر هذه الزيارات أي فائدة تُذكر. فلم يتعرف أي أحد في هذه المتاجر على صاحب الصورة.

قال ستراتون: «لا بأس، سيكون عليك إذن أن تستمر في البحث حتى تجد مَن يتعرَّف عليه. فالأمر، في ظني، لا يستلزم سوى أن تعطيه حقه من الوقت والمثابرة.»

في صباح اليوم التالي، استيقظ ستراتون متأخرًا. طالع في الجريدة الصباحية تقريرًا عن المحاكمة، ثم تصفَّح الجريدة حتى وصل إلى الصفحة الأولى، وقرأ بغضبٍ متصاعد المقال الافتتاحي الآتي:

قضية مقتل برنتون

إن قرار أمس يعكس الحيرة الشديدة التي طغت على حكم هيئة المحلفين الأمريكية المتعارف عليها. إذا كان من الواجب إصدار مثل هذه الأحكام، فربما علينا أيضًا أن نحذف من سجل القوانين جميع العقوبات التي تُوقَّع على كل الجرائم التي تعتمد أدلتها اعتمادًا كبيرًا على الأدلة الظرفية. لو أن ثمة حجةً مفحِمةً أقيمت ضد أي إنسانٍ كان، فهي حجة الادعاء في المحاكمة الأخيرة. ولو أن هناك حجةً كان فيها الدفاع أضعف ما يكون، بالرغم من الأداء المتمكِّن،

فهي حجة الدفاع في القضية التي انتهت أمس. هل ينبغي، إذن، أن نكون على استعداد للقول بأن هيئة المحلفين الأمريكية لن تأخذ في حسبانها الأدلة الظرفية باعتبارها أساسًا لإدانة القاتل؟ إذا خلصنا إلى هذا الاستنتاج، فالاحتمال الأرجح أننا سنكون مخطئين تمامًا. لو كان الماثل في قفص الاتهام رجلًا، بدلًا من هذه السيدة الشابة الحسناء التي كانت قابعةً داخله أمس؛ لأصبح اليوم هذا الرجل مدانًا بالقتل دون شك. فالاستنتاج، إذن، الذي يجب أن نتوصل إليه على ما يبدو هو أنه ما لم يكن ثمة دليل قاطع على القتل يَثبت ضد امرأة حسناء، فمن المستحيل مطلقًا أن تدينها هيئة المحلفين المتعارف عليها المؤلفة من الرجال. وعلى ما يبدو أنه كلما عجَّلنا بإشراك النساء في هيئات المحلَّفين — بالأخص إذا كان الماثل أمام المحكمة امرأة — فسيكون ذلك أفضل لإقامة العدل.

وفي أجزاء متفرقة من الجريدة، ظهرت أخبار مقتضبة على غرار:

إذا لم تكن زوجة السيد برنتون هي من سممت زوجها، فمن فعلها إذن؟

في عصر ذلك اليوم، ذهب جورج ستراتون في زيارةٍ إلى السيدة برنتون. كان يأمل ألَّا تكون قد قرأت ما نُشر في تلك الجريدة محل الحديث، لكن خاب أمله. فقد وجد السيدة برنتون غير فرحة تمامًا ببراءتها.

قالت: «سوف أهبك كل ما أملك لتقدم الجاني إلى العدالة.»

بعد أن تجاذبا أطراف الحديث حول هذه المسألة الشائكة، أمسك جورج ستراتون بيديها وودَّعها، وحينئذٍ سألته:

«متى ستذهب إلى شيكاجو؟»

قال: «سيدتي، سأغادر إلى شيكاجو في اللحظة التي سأكتشف فيها مَن سمم ويليام برنتون.»

أجابت بكل أسًى:

«ربما ستظل لوقتٍ طويل في سينسيناتي.»

قال ستراتون: «صرت أحب سينسيناتي أكثر من شيكاجو بشكل ما.»

ردت السيدة: «أنت أول رجلٍ من شيكاجو على الإطلاق أسمعه يصرح بذلك.»

«هذا لأنهم لم يعرفوا سينسيناتي كما عرفتها.»

«أظن أنك رأيت حتمًا أماكن كثيرةً في المدينة؛ لكن لا مفر من الاعتراف بأنني من الآن فصاعدًا، سأصبح سعيدةً للغاية إن لم أرَ سينسيناتي مجددًا.» ثم تابعت حديثها: «وددت أن أستشيرك في أفضل سبيلٍ لحل هذا اللغز. كنت أفكر في الاستعانة بنخبة من أفضل المحققين ممن يتسنى لي الوصول إليهم. أظن أن نيويورك ستكون أفضل مكان للعثور عليهم.»

أجاب الشاب: «لا، شيكاجو هي الأفضل.»

«حسنًا، لذلك أردت مقابلتك. أود أن أستعين بأفضل محققين يمكن لأحد الاستعانة بهم. إذا عُهِد إليهم بمكافأة سخية، وتقاضَوا أجرًا مجزيًا طوال فترة عملهم في القضية، ألا تظن أننا قد نتوصَّل إلى مفتاح حل هذا اللغز؟»

أجاب ستراتون: «لا أثق كثيرًا في المنظومة البوليسية لدينا هنا، وإن كنت أرى أن هناك شيئًا من الصحة في عملهم، وفي بعض الأحيان ينجحون رغمًا عن أنفسهم في فك خيوط الجريمة. ولكن، سيسعدني حقًّا أن أسدي إليك أي نصيحةٍ بوسعي أن أقدمها لكِ بشأن القضية. قد أزعم أنني عيَّنتُ نفسي محققًا خاصًّا في هذه القضية، على أمل أن أنال شرف حل هذه المعضلة.»

أجابته: «أنت رجلٌ نبيلٌ للغاية حقًّا، ولكن سأطلب منك أن أتحمل التكاليف.»

قال ستراتون: «لا عليكِ، الصحيفة ستتحمل ذلك. لن أدفع أي شيء من مالي الخاص.»

«حسنًا، لا تسعفني الكلمات، لكن سواء أحالفك النجاح أم لم يحالفك، فأنا أشعر بامتنان شديد لك، وأتمنى ألا تغضب مما سأقول. والآن، عدني بأنك لن تغضب!»

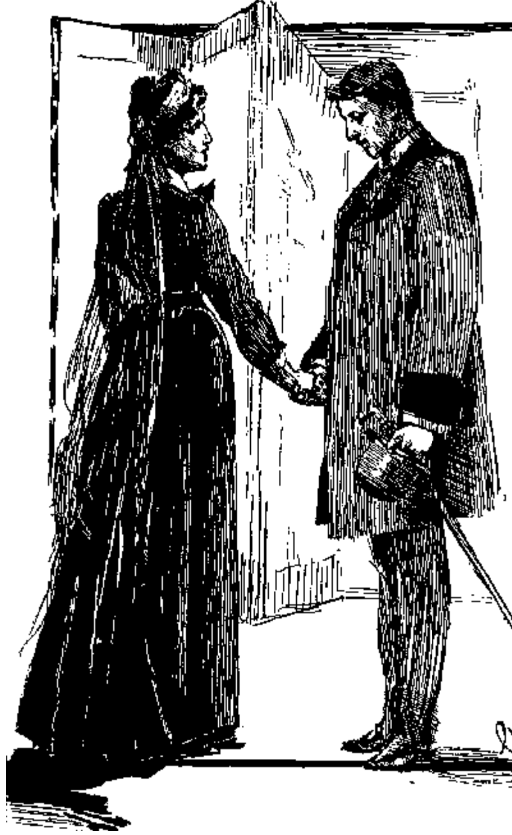
أجاب ستراتون: «أعدُكِ بألا أغضب. من الصعب قليلًا أن تُغضبي صحفيًّا من شيكاجو، كما تعرفين.»

«يجب ألَّا تصرح بأي شيءٍ ضد رجال الصحافة؛ فأنا أحبهم على الرغم من التعليقات القاسية التي صدرت من بعضهم بشأني.»

«بصفة فردية أم جماعية؟»

«أخشى أن عليَّ أن أخبرك بصفةٍ فردية. قلت إنك لن تغضب؛ ولهذا بعد أن تفرغ من بحثك، عليك أن تدعني ... الأجير جدير بأن يُؤجَر، أو ... أو ... من الأفضل أن أقول يكافأ على عمله، تعرف ما أقصده. أعتقد أن شابًّا يكسب قوت يومه من جريدة يومية ليس بالضرورة أن يكون ثريًّا.»

«عجبًا! يا لغرابة أفكارك عن العالم يا سيدتي! نحن الصحفيين لا نعمل في هذا المجال إلَّا لأننا نحبه. فالهدف من العمل لا ينحصر بالكامل في المال.»



أشعر بامتنان شديد لك.

«إذن لم تغضب مما قلت، أليس كذلك؟»

«أبدًا، على الإطلاق. لكن، قد أزعم أنني أتطلَّع لمكافأة أعلى من المكافأة النقدية إذا نجحت في هذه التحريات.»

أجابت السيدة، بنبرة بريئة: «أجل، أثق في ذلك. إذا نجحت في تحرياتك، فستكتسب شهرةً كبيرة.»

قال ستراتون وهو يصافحها مرةً أخرى استعدادًا للمغادرة: «بالضبط؛ الشهرة هي ما أصبو إليه.»

عندما وصل جورج ستراتون إلى الفندق، وجد ذلك المحقق من شيكاجو في انتظاره.

«مرحبًا، ألديك جديد، أيها الخبير؟»

«أجل، يا سيدي. لديَّ خبر جديد تمامًا.»

«إلامَ توصلت؟»

«كل شيء.»

«عظيم، هاتِ ما عندك.»

«توصلت إلى أن هذا الرجل اشترى ثلاثين ذرة مورفين يوم ١٠ ديسمبر. ثم عبَّأ هذا المورفين في كبسولات زنة خمس ذرات. اشترى هذا من متجر عقاقير عند ملتقى شارعَي بلانك ستريت ونيمو أفينيو.»

أجاب ستراتون: «يا إلهي! وحتى يحصل على المورفين، كان لا بد أن يحصل مسبقًا على شهادة من أحد الأطباء. هل وجدت الطبيب الذي وقَّع على الشهادة؟»

قال ذلك الرجل من شيكاجو: «سيدي العزيز، هذا الشخص هو نفسه طبيب، ما لم أكن مخطئًا. أخبروني أن هذه صورة ستيفن رولاند. هل أنا مُحق؟»

«هذا اسمه.»

«جيد، إذن هو نفسه طبيب. صحيح أنه لا يمارس مهنته على نطاقٍ واسع، لكنه طبيب. ألم تكن تعرف ذلك؟»

قال ستراتون: «لا، كم أنا غبي! لم يخطر في ذهني مطلقًا أن أسأل عن مهنته.»

«عظيم، إذا كان هذا ما أردت معرفته، فإليك تقريرًا مفصلًا عن تحرياتي.»

عندما غادر الرجل، فرك ستراتون يديه.

ثم قال: «ها قد أوقعت بك، يا سيد ستيفن رولاند.»

الفصل الثاني عشر

جلس ستراتون بعد أن تلقَّى هذه المعلومات منعزلًا في غرفته، قادحًا ذهنه في مخططاته. لم يشأ أن يتخذ خطوةً خاطئة، ولكن الدليل الذي حصل عليه لم يكن كافيًا ليبرر تسليم ستيفن رولاند إلى الشرطة. إلى جانب هذا، كان من شأن مثل هذه الخطوة أن تدفع المشتبه به إلى أخذ حذره في الحال، ولم يكن ثمة أي شك في أن ذلك الرجل قد أخذ الاحتياطات كافةً للحيلولة دون اكتشاف فعلته. بعد دراسة متأنية للأمر لوقتٍ طويل، ارتأى أنه ربما أفضل ما يمكن فعله هو أن يحاول مباغتة رولاند. في تلك الأثناء، وأمام ذلك الرجل المستغرق في التفكير، وقف برنتون وسبيد وكأن بينهما خلافًا حادًّا في الرأي.

قال سبيد: «قلت لك، لا فائدة تُرجى من التدخُّل مع ستراتون. إنه على الطريق الخطأ، ولكن كل ما يمكن أن نمارسه عليه من تأثير في إطار تفكيره الحالي لن ينتج عنه سوى ما حدث من قبلُ وحسب؛ سيربكه ويشوش تفكيره. أقترح أن ندعه وشأنه. دعه يكتشف خطأه. وسيكتشفه بطريقةٍ أو بأخرى؛ وحينئذٍ سيصبح ذهنه مهيئًا للتحوُّل بتفكيره إلى جين مورتون.»

جادله برنتون قائلًا: «لكن ألا ترى أن كل ذلك الوقت الذي استغرقه في تحرياته الحالية هو مضيعة كبيرة للوقت؟ سأتفق معك في أن ندعه وشأنه، كما تقول، لكن لنضع شخصًا آخر في اتجاه جين مورتون.»

قال سبيد: «لا رغبة لي في ذلك؛ لأن جورج ستراتون قد أولى قدرًا كبيرًا من الاهتمام لهذا البحث. لقد قطع شوطًا كبيرًا الآن، وأظن أن من الواجب أن نشعر بالامتنان تجاهه لذلك.»

قال برنتون متذمرًا: «امتنان! لقد فعل ذلك من منطلق دوافع أنانية بحتة يمكن لشخص أن يتصرف على أساسها. لقد فعل كل ذلك فقط لأجل الصحيفة التي يعمل بها، ومن أجل سمعتها. لقد فعل ذلك سعيًا وراء المال.»

قال سبيد في انفعال: «عليك أن تكف الآن عن الحديث أمامي عن ستراتون بهذه اللهجة. لن أدلي برأيي في أسلوب الحديث الذي بدر منك، ولكن بوسعك أن ترى مدى خطورة تدخلنا في عمله قبل هذا، وكيف أوشك على العودة إلى شيكاجو نتيجةً لتدخلنا. أقترح الآن أن نتركه بمفرده.»

أجاب برنتون: «اتركه بمفرده إذن لأي هدفٍ كان. أنا واثق من أنني لن أبني أي شيء على ما يمكن أن يفعله بأي حال.»

رد سبيد، مستعيدًا طبيعته الدمثة: «حسنًا، إذن. رغم أنني لا أنوي أن أضع أي شخصٍ آخر في طريق الآنسة جين مورتون، لكن سأخبرك بما أنوي فعله. إن شئت، فسنذهب إلى مقر إقامتها، ونؤثِّر عليها حتى تعترف بجريمتها. أظن ذلك أمرًا يمكن القيام به.»

«رائع؛ أريدك أن تعلم أنني موافق تمامًا على هذه الخطوة. كل ما أريده هو ألا نضيع وقتًا أكثر من ذلك.»

صاح سبيد: «وقت؟! لدينا كل ما نحتاجه من الوقت. لقد ثبَتت براءة زوجتك. ولم يعد هناك أي خطورة.»

«أقر بأن هذا صحيح مائة في المائة، لكنك لا تزال ترى الحزن الذي ترزح تحته؛ لأن ساحتها لم تبرأ بعدُ من عار الجريمة. ستلتمس العذر لي، يا سبيد، إذا قلت إنك تبدو كمن يسعى من أجل إنجاح ستراتون صحفيًّا أكثر من تبرئة سمعة زوجتي.»

قال سبيد: «حسنًا، لن نتحدث في هذه المسألة. ستراتون لديه القدرة الكافية على الاعتناء بنفسه، كما سترى قطعًا. والآن، ما رأيك في أن نجري محاولةً لنرى إذا ما كان بوسعنا التأثير على جين مورتون لتفعل ما ينبغي فعله، وتُقر بجريمتها؟»

أجابه برنتون: «هذه مهمة لا يُرجى منها الكثير؛ من الصعب أن نوحي لشخصٍ بأن يدلي بما يضع حبل المشنقة حول رقبته.»

قال سبيد: «لست واثقًا من ذلك؛ فأنت تدرك بالطبع حالة القلق التي تعيشها. أعتقد أنه قد بات من الوارد بقوة أن يريحها تسليم نفسها بعد الفزع الذي عانته خلال الأسابيع القليلة الماضية.»

«عظيم؛ لنذهب إليها.»

ما لبث الرجلان أن وجدا نفسَيهما في الغرفة القليلة الأثاث التي تسكنها جين مورتون. كانت تلك الفتاة المسكينة تتأرجح إلى الأمام والخلف وتندب ندبًا على الكارثة التي حلَّت بها. وفجأةً توقفت عن التأرجح، وأخذت تتطلَّع حولها عبر أرجاء الغرفة وفي عينَيها توجُّس مُبهم. نهضت وتفقَّدت مزلاج الباب، وما إن تحققت من أن كل شيءٍ محكم الغلق، عاودت الجلوس.

صاحت محدِّثةً نفسها: «لن أنعم بأي سكينةٍ في هذا العالم مرةً أخرى.»

ثم أخذت تميل بجسدها إلى الأمام والخلف في صمت للحظات معدودة.

ثم قالت: «أتمنى لو تكتشف الشرطة الأمر كله، ويزول عذاب نفسي.»

ثم عاودت التأرجح بجسدها إلى الأمام ثم الخلف، ويداها مرتخيتان في يأس على حِجرها.

قالت منتحبةً ولم تزل تتأرجح: «يا إلهي! لا يمكنني فعل ذلك، لا يمكنني فعل ذلك!» وأخيرًا هبَّت واقفة.

وصاحت: «سأفعلها، سأعترف إلى السيدة برنتون نفسها. سأخبرها بكلِّ شيء. لقد مرَّت هي نفسها بهذا الكرب، وربما ترأف بي.»

قال سبيد لبرنتون: «ها أنت ترى بنفسك، لقد نجحنا في التغلب على هذه العقبة في النهاية.»

أجاب برنتون: «يبدو الأمر كذلك قطعًا. ولكن، ألا تظن أنه كان من الأحرى أن نبقى معها حتى تعترف؟ أليس محتملًا أن تعدل عن قرارها؟»

قال سبيد مقترِحًا: «لنتجنب الإسراف في الأمر؛ إن لم تعترف، فسيأتي الوقت، ويمكننا بسهولة أن نجري حوارًا آخر معها. لقد حسمت الفتاة قرارها. إنها الآن تتجرع المرارة والأسى وستظل هكذا حتى تقر بجريمتها. لنذهب الآن ونتركها بمفردها.»

لم يتوانَ جورج ستراتون في تنفيذ خطته بمجرد أن حسم أمره. ثبَّت على الجانب الأمامي من صدريته شارةً صغيرةً تحمل كلمة «محقق». وجد هذا الأمر مُجديًا قبل ذلك عند التحرِّي عن جريمة في شيكاجو، على نحو لا يُعاقب عليه القانون مطلقًا. وحالما حلَّ المساء، ظل يسير جيئةً وذهابًا أمام منزل رولاند، وعلى الجهة المقابلة من الطريق. كان ثمة ضوء في مكتب الطبيب، وظن أنه ربما تكون أفضل طريقة للبدء هي اقتحام المنزل وتنفيذ خطته. ولكن بينما كان يمعن التفكير في ذلك، انطفأ الضوء، وفي لحظاتٍ معدودة انفتح الباب. نزل الطبيب على السلم، ثم خرج إلى الرصيف، وظل يسرع الخطى عبر الشارع.

تتبَّعه الصحفي على الجهة الأخرى من الطريق. كان السؤال الذي يُلح على ستراتون إذا ما كان من الأحرى تنفيذ خطته في الظلام أم في الضوء. إذا نفَّذ خطته في الظلام، فلن يلحظ تعبيرات وجه الرجل حين يتفاجأ. وإذا نفذها في الضوء، فقد يعرف الطبيب أنه صحفي شيكاجو، وسيعرف في الحال أنه ليس بمحقق. لكنه شعر أنه إذا كان ثمة شيء يميِّز خطته، فهو عنصر المفاجأة؛ ثم تذكَّر الشهقة السريعة التي صدرت عن المحامي براون من أثر المفاجأة عندما أخبره بأنه يعرف خطته في الدفاع. لا بد أن يتمكن من ملاحظة تعبير الرجل المدان بهذه الجريمة البشعة.

ما إن حسم أمره في هذا الشأن، أسرع وراء الطبيب بخطًى متزنة، وعندما مر الأخير تحت عمود إنارة، وضع ستراتون يده فجأةً على كتف الطبيب ثم صاح بقوة:

«دكتور ستيفن رولاند، أنا هنا لألقي القبض عليك بتهمة قتل ويليام برنتون!»

الفصل الثالث عشر

التفت ستيفن رولاند بهدوءٍ وأنزل اليد من أعلى كتفه. كان واضحًا أنه تعرَّف على ستراتون في الحال.

سأل الطبيب: «هل هذه دعابة من شيكاجو؟»

«لو كانت دعابة، يا سيد رولاند، فأظنك ستجدها مزحةً جادةً للغاية.»

«ألا تخشى أن تجدها أنت دعابةً جادة؟»

أجاب الصحفي: «لا أجد داعيًا يدفعني إلى الخوف مما قلت.»

«سيدي العزيز، ألا تدرك أن بوسعي أن أطرحك أرضًا أو أرديك قتيلًا بالرصاص جزاءً لما فعلت، وسيكون لي من الأسباب ما يبرر فعلي؟»

أجاب الآخر: «سواء طرحتني أرضًا أو أطلقت النار عليَّ، فسيكون عليك أن تفعل ذلك بسرعةٍ فائقة؛ لأني قد أوقعت بك فريسةً بين يدي، بلغة أهل الغرب المتوحشين. في جيب معطفي هذا مسدسٌ في وضع الاستعداد وسبابتي على الزناد. إذا بَدَرت منك أي حركة عدائية؛ فسأجعل جسدك يشع ضوءًا كضوء النهار بسرعةٍ فائقة ستعجزك حتى عن إدراك ما أصابك.»

أجاب الطبيب، بنبرةٍ هادئة: «أظنك تقصد ضوءًا كهربائيًّا. حتى الرجل من شيكاجو قد يستعصي عليه أن يصعق شخصًا في هذا الوقت من المساء. ربما تكون مثل هذه الأمور من عادات وخلق أهل شيكاجو، لكن أؤكد لك أنها لا تصلح هنا في سينسيناتي. لقد أوقعت بنفسك تحت طائلة القانون إذا كنتُ عابئًا باستغلال هذه النقطة، لكنني لا أعبأ بذلك. عد معي إلى مكتبي. أريد التحدث معك.»

تسلَّل إلى ستراتون شعور لا يعرف من أين أتاه بأنه قد تصرف بحماقة جعلته أضحوكة. لقد فشل مخططه فشلًا ذريعًا. كان الطبيب أكثر هدوءًا وتماسكًا منه بكثير.

رغم ذلك، ساوره شعور عميق بالشك في ذلك الرجل، ولهذا أبقى مسدسه في متناول يده خشية أن ينطلق الآخر راكضًا ويلوذ بالفرار منه. عاد الرجلان معًا دون أن يتفوه أحدهما بكلمةٍ إلى الآخر طوال الطريق إلى أن وصلا إلى مكتب الطبيب. دلفا إلى المنزل، وأوصد الطبيب الباب وراءهما. شك ستراتون أن ثمة احتمالًا كبيرًا في أنه ينجر إلى فخ، لكنه كان يرى أنه متأهب لوقوع أي طارئ مفاجئ. دخل الطبيب إلى غرفة المكتب، ثم أوصد بابها مجددًا. حالما أسدل الستائر، أشعل الغاز إلى أقصى درجة ثم جلس إلى طاولة، وأشار إلى الصحفي بالجلوس على الجانب الآخر.

تحدَّث إلى ستراتون في هدوء قائلًا: «إن السبب في عدم امتعاضي من إساءتك غير المبررة هو؛ أنك تحاول بضميرٍ حي أن تصل إلى أصل هذا اللغز. وأنا كذلك. الدافع الذي يحركك هو رغبتك في أن تُحرز انتصارًا لصالح الصحيفة التي تعمل بها. أما دافعي فمختلفٌ تمامًا، لكن هدفنا واحد في النهاية. والآن، ساقتك مجموعة من الملابسات الغريبة إلى استنتاج أنني أنا من ارتكبت الجريمة. هل أنا محق؟»

أجاب ستراتون: «محق مائةً في المائة، أيها الطبيب.»

«عظيم، إذن. أؤكد لك أنني بريء تمامًا. وبالطبع، أتفهَّم أن هذا التأكيد لن يؤثر بأي قدر في رأيك، لكن لدي فضول لمعرفة ما دفعك إلى هذا الاستنتاج، ولعلنا إذا تشاركنا الأفكار، حتى إن كان كل منا يضمر كراهيةً للآخر، فقد نرى ضوءًا في الأفق بشأن هذا اللغز الذي لا يزال سره غير معلوم حتى الآن. أظنك لا تمانع على الإطلاق أن تتعاون معي؟»

كانت الإجابة «لا مانع لديَّ مطلقًا.»

«عظيم، إذن. لا تلقِ بالًا لمشاعري على الإطلاق، لكن أخبرني تحديدًا عن سبب اشتباهك في كوني القاتل.»

أجاب ستراتون: «حسنًا، لا بد أولًا أن نبحث عن دافع. يبدو لي أن ثمة دافعًا بداخلك لارتكاب الجريمة.»

«وهل تسمح لي أن أسألك ما هو، أو ماذا كان، ذلك الدافع؟»

«هل ستقر بأنك كنت تكره برنتون؟»

«أجل، سأقر بذلك.»

«عظيم. وهل ستقر كذلك بأنك كنت ... حسنًا، كيف لي أن أصوغها؟ لنقل، تهتم بأمر زوجته قبل زواجها به؟»

«أجل، سأقر بذلك.»

«ولعلك ستعترف بأنك تهتم بأمرها في الوقت الحالي؟»

«وإن كنت لا أرى أي ضرورة للاعتراف بذلك، لكن مسايرةً لوقائع القضية، فسأعترف بذلك. استمر.»

«جيد للغاية. ها هو الدافع وراء ارتكاب الجريمة، وهو دافعٌ قويٌّ للغاية. أولًا، سنفترض أنك واقع في غرام زوجة الرجل الذي قُتِل. ثانيًا، على فرض أنك رجل جشع، سيصبح في حوزتك مبلغ كبير من المال في حال زواجك من أرملة السيد برنتون. النقطة التالية، ثمة شخص ما على تلك المائدة سمَّمه. هذا الشخص لم يكن السيدة برنتون التي صبَّت له فنجان القهوة. لقد وُضِع فنجان القهوة أمام برنتون، ورأيي أنه لم يكن هناك أي سم في الفنجان حتى اللحظة التي وُضع فيها أمامه. لم يكن في نفس القتيل البائس أي شكوكٍ على الإطلاق؛ ولذلك كان من السهل تمامًا على أي شخص أن يدس قدرًا كافيًا من السم في ذلك الفنجان دون أن يلحظه أي من الجالسين على المائدة، وبذلك عندما احتسى قهوته لم يستطع أن ينجيه أحدٌ من الهلاك. ثم غادر المائدة وهو يشعر بالإعياء، واتجه إلى غرفته ثم فارق الحياة. مَن كان بإمكانه أن يضع ذلك السم في فنجان قهوته؟ لا بد أنه واحد من الشخصَين الجالسَين عن يمينه ويساره. كانت تجلس عن يمينه سيدة شابة. وحتمًا ليست هي من ارتكبت الجريمة. وأنت، ستيفن رولاند، مَن كنت تجلس عن يساره. هل تنكر أيًّا من الوقائع التي سردتها لك؟»

«هذه سلسلة عبقرية من الأدلة الظرفية. بالطبع لا تظن أن هذه الأدلة قوية بما يكفي لإدانة شخص بجريمة خطيرة كالقتل؟»

«بلى؛ أدرك تمامًا ثغرات القضية حتى هذه النقطة. ولكن هناك المزيد لنتتبعه. لقد اشتريت قبل هذا العشاء بأربعة عشر يومًا من متجر العقاقير عند ملتقى شارعَي بلانك ستريت ونيمو أفنيو ثلاثين ذرة مورفين. ثم عبأت السم في كبسولات تحتوي الواحدة منها على خمس ذرات. ما رأيك في هذا الدليل الذي أُضيف إلى سلسلة الأدلة العبقرية كما قلت؟»

عقد الطبيب حاجبَيه واتكأ في مقعده.

ثم قال: «يا إلهي! أنت محق. لقد اشتريت هذا المورفين بالفعل. تذكَّرت الآن. لا أرى مانعًا من أن أخبرك بأن لديَّ عدد من التجارب أعمل عليها، كشأن أي طبيب، وعبَّأت هذه الكبسولات في متجر العقاقير، لكن وقوع هذه المأساة أنساني الأمر برمته.»

«هل أخذت المورفين معك، يا دكتور؟»

«لا، لم آخذه معي. ولا أظن أن علبة الكبسولات قد فُتحت. لكن هذا أمر يسهل التثبت منه.»

نهض الطبيب، ثم اتجه إلى خزانته، وفتحها. من بين عدد من العُلب اختار علبةً صغيرة، وأحضرها إلى مكتبه، ثم وضعها أمام الصحفي.

«ها هي العلبة. بداخلها، كما تقول، ثلاثون ذرة مورفين موزعة على ست كبسولات تحتوي الواحدة منها على خمس ذرات. وكما ترى، العلبة مغلقة تمامًا مثلما خرجت من متجر العقاقير، افتحها وانظر بنفسك. ها هو الميزان، إذا أردت أن تتحقق مما إذا كانت ذرة واحدة مفقودةً أم لا، فلْتتأكد بنفسك.»

قال الصحفي: «ربما من الأفضل أن ندع هذا التحقيق للسلطات المختصة.»

«والآن، أما زلت على اعتقادك بأنني مَن قتلت ويليام برنتون؟»

«أجل، لا أزال عند ظني.»

«جيد للغاية، كما تشاء. لكن، أعتقد أنه من منطلق الإنصاف لشخصي، عليك أن تبقى هنا، وتتأكد أن يدًا لم تعبث بهذه العلبة حتى تأتي السلطات المختصة كما تقول.»

ثم أضاف وهو يضع يديه على الجرس: «مَن تريد أن أرسل إليه؟ رجل شرطة عادي، أو شخص من المكتب المركزي؟ لكن، بما أنني أفكر بالأمر الآن، إليك الهاتف. بإمكاننا أن نستدعي من تشاء إلى هنا. وأفضِّل ألا يغادر أيٌّ منَّا هذه الغرفة حتى يحضر ذلك المسئول.»

ثم قال الطبيب، متجهًا إلى الهاتف: «أخبرني باسم المسئول الذي ترغب في استدعائه إلى هنا، وسأستدعيه في حال كان في المدينة.»

كان الصحفي مرتبكًا ومندهشًا. فلم تكن أفعال الطبيب تبدو كأفعال رجلٍ مذنب. لو كان مذنبًا، حتمًا سيكون قلقًا أكثر من أي شخص قابله ستراتون على الإطلاق. لذلك تردد. ثم قال:

«اجلس لحظة، يا دكتور، لنتناقش في هذا الأمر.»

علَّق رولاند، وهو يسحب كرسيه مرةً أخرى: «كما تريد.»

أخذ ستراتون العلبة، ثم تفحَّصها بعناية. بدا واضحًا يقينًا أنها على الحالة التي خرجت بها من متجر العقاقير، لكن هذا كان أمرًا يمكن بسهولة أن يفعله الطبيب بنفسه.

قال لرولاند: «أظن أن بإمكاننا فتح هذه العلبة؟»

قال الطبيب: «بكل سرور، تفضل.» ثم دفع إليه بسكين صغير كان على الطاولة.

أخذ الصحفي العلبة، ثم مرر السكين حول حافَّتها، ثم فتحها. كان بداخلها ست كبسولات، معبأة، كما ذكر الطبيب. التقط رولاند واحدةً منها، وأخذ يتفحَّصها بدقة.

ثم قال: «أؤكد لك، رغم يقيني التام بأنك لن تصدق كلمةً واحدةً مما أقول، أنني لم أرَ تلك الكبسولات من قبل.»

جذب ناحيته قطعةً من الورق، وفتح الكبسولة، ثم أفرغ المسحوق الأبيض على الورقة. نظر إلى المسحوق نظرةً فاحصة، ثم اعتلى وجهه نظرة ذهول. التقط السكين، ثم أخذ جزءًا ضئيلًا على طرفه، ولمسه بلسانه.

قال ستراتون: «لا تستهتر في التعامل مع هذا الشيء.»

قال الطبيب: «مهلًا، يا عزيزي، فالكميات الضئيلة من المورفين لا تسبب التسمم.»

بيد أنه في اللحظة التي تذوق فيها الطبيب المورفين، التقط الورقة فجأة، ثم وضع خمس ذرات على لسانه، وابتلعها.

هبَّ الصحفي واقفًا في الحال. وتبيَّن له على الفور السبب وراء كل هذا الهدوء المصطنع. لقد كان الطبيب يكسب وقتًا فحسب لكي ينتحر.

صاح الصحفي: «ماذا فعلت؟»

«ما الذي فعلته، يا عزيزي؟ لم أفعل شيئًا على الإطلاق. هذا ليس مورفين؛ هذه سلفات الكينين.»

الفصل الرابع عشر

في الصباح، تهيَّأت جين مورتون لمقابلة السيدة برنتون والاعتراف لها. ذهبت إلى منزل السيد برنتون، لكن وجدته مغلقًا كما كان منذ وقوع مأساة صبيحة عيد الميلاد. استغرقت بعض الوقت حتى تصل إلى المكان الذي تقيم فيه السيدة برنتون التي أقامت، منذ حادث القتل، عند صديقةٍ لها باستثناء فترة احتجازها.

لم تتعرَّف السيدة برنتون لوهلة على السيدة الهزيلة الشاحبة الوجه التي وقفت أمامها في حالة اضطراب عصبي شديد، لدرجة جعلتها تبدو كأنها ستنهار وتبكي في أي لحظة.

بدأت الفتاة حديثها قائلة: «لا أظن أنك ستتذكرينني، يا سيدتي، لكنني عملت لديكم منذ أسبوعين قبل ... قبل ...»

قالت السيدة برنتون: «أجل، تذكرتك الآن. هل كنتِ مريضة؟ تبدين منهكةً وشاحبةً تمامًا، شتَّان بين هيئتك الآن وآخر مرة رأيتك فيها.»

قالت الفتاة: «هذا صحيح، أظن أن علةً قد أصابتني.»

«تظنين؛ ألستِ على يقين من ذلك؟»

«العلة التي أصابتني كانت في عقلي، فأثقلني الهم، ولهذا السبب أبدو بهذا السوء ... أوه، سيدتي، أردت أن أخبرك بشيءٍ أرهق ذهني منذ ذلك اليوم المشئوم! أعلم أنك لن تغفري لي أبدًا، لكن لا بد أن أخبرك، وإلَّا فسيصيبني الجنون.»

قالت السيدة برنتون، بعطف: «اجلسي، اجلسي، لا يخفى عليكِ بالتأكيد أي كرب كنت أمرُّ به. وأنا على يقين من أن قدرتي الآن على التعاطف مع شخصٍ أصابه كرب قد ازدادت عن أي وقت مضى.»

«أجل يا سيدتي، لكنك كنتِ بريئة، أما أنا فمذنبة. وهذا ما يجعل الفرق شاسعًا بيننا.»

صاحت السيدة برنتون، وقد غشيها خوف غريب وهي تحدق بالفتاة: «مذنبة! مذنبة بأي شيء؟»

«سيدتي، دعيني أخبرك بكل شيء. ليس لديَّ، قطعًا، أي عذر، لكن سأحكي من البداية. أتتذكرين قبل عيد الميلاد بفترةٍ عندما جاء جون لزيارتي في إحدى الليالي، وجلسنا معًا في المطبخ حتى ساعة متأخرة من الليل، ونزل زوجكِ في هدوء، وعندما سمعناه قادمًا نحونا أطفأنا الضوء، وبينما كان جون يحاول الهرب، أطلق زوجك النار عليه مرتين، وأصابه في المرة الثانية؟»

قالت السيدة برنتون: «أجل، أتذكر ذلك جيدًا. لقد نسيت الحادثة تمامًا في غمرة أزمتي؛ لكن أعلم أن زوجي كانت لديه النية لأن يفعل شيئًا لأجل ذلك الشاب. لعل إصابته لم تكن خطيرة، أليس كذلك؟»

«بلى، يا سيدتي، لقد استرد عافيته مرةً أخرى أكثر من قبل، ولم يُصبه حتى العرج، كما كنَّا نتوقع. ولكن حينها ظننت أن العرج سيلازمه بقية حياته، وربما لهذا السبب فعلت ما فعلته. عندما كان المنزل في هرج ومرج، وبدا مؤكدًا أننا سنغادر جميعنا المنزل، اقترفت عملًا مخزيًا. ذهبت إلى غرفتك، وسرقت بعضًا من خواتمك، وبعض المال الذي كان هناك، وأشياء أخرى كثيرةً كانت في الغرفة. تراءى لي حينها — رغم أنني أعرف قطعًا الآن كم كان ما فعلته مخزيًا — أنكم مدينون إلى جون بشيءٍ تعويضًا له عما مر به، وكنت أظن أنه سيصبح أعرج، وأنك لن تلاحظي مطلقًا اختفاء هذه الأشياء؛ لكن، يا إلهي! لم يغمض لي جفن، يا سيدتي، ليلةً واحدةً منذ أن سرقتها. كنت أخشى الشرطة وأخشى أن يعثروا عليَّ. لم أرهن أيًّا منها، وكل شيء أخذته كما هو دون نقصان، وقد أحضرتها إليك هنا، مع كل سنتٍ أخذته من المال. أعلم أنك لا يمكن أن تسامحيني أبدًا، ولكنني الآن على أتم الاستعداد لأن أُسلَّم إلى الشرطة، وأشعر بأن ذهني في حالٍ أفضل عما كنت عليه منذ أن سُرقت الأشياء.»

قالت السيدة برنتون، بنبرة تعاطف: «صغيرتي المسكينة! أهذا كل شيء؟»

صاحت الفتاة: «كل شيء؟ أجل، لقد رددت إليك كل شيء.»

«معذرة، لم أقصد ذلك، لكن يحزنني كل هذا القلق الذي حلَّ بك من شيءٍ تافه كهذا. أتفهَّم في مثل ذلك الوقت كيف تسلل إليك شعورٌ بأنك قد ظُلِمت، وسوَّلَت لك نفسك سرقة



مذنبة! مذنبة بأي شيء؟

الأشياء. لكن أتمنى ألا يزعجك الأمر أكثر من ذلك. ما دام بالإمكان تعويض جون بالمال، أرى أنه سيُعوَّض عن كل ما أصابه. أتمنى أن تحتفظي بالمال. أما الأشياء الأخرى، بالطبع، فسأستردها، ويسرني مجيئك لتخبريني بالأمر قبل أن تُفضي به لأي شخص آخر. وأظن أنه ربما كان من الأفضل ألا تبوحي بأي شيء عن هذا الأمر لأي شخص. قد لا يتفهَّم الناس الوساوس التي أغوتكِ بهذا، ولن يعرفوا ملابسات الحادث؛ لأنه لا أحد يعرف، حسب ظني، بإصابة جون. والآن، يا صغيرتي العزيزة، كفاكِ بكاءً. كل شيء أصبح في نصابه. وحتمًا لن تلمسي أي شيءٍ ليس ملكك مرة ثانية، والمعاناة التي ألَّمت بكِ كانت سببًا في إصلاح جميع

الأخطاء التي وقعتِ فيها. أنا واثقة من أنني سأسامحك بنفس صافية عما بدر منك، وأظن أنه كان نبلًا بالغًا منك أن جئت وأخبرتني بالأمر.»

أخذت السيدة برنتون الصندوق من يدي الفتاة الباكية، وفتحته. وجدت كل شيءٍ بداخله، كما قالت الفتاة. أخذت المال وأعطته لجين مورتون. هزَّت الفتاة رأسها في رفض.

صاحت قائلة: «لا، لا أستطيع أن ألمسه بيدي. لا أستطيع حقًّا. لقد أشقاني بما يكفي.»

أجابت السيدة برنتون: «عظيم. أود كثيرًا أن أقابل جون. هلا أتيتِ إليَّ به؟»

نظرت الفتاة إليها بعين فزعة.

ثم قالت: «لن تخبريه، أليس كذلك؟»

«كلا، لن أخبره بأي شيءٍ بكل تأكيد. لكن أريد أن أقدم له ما في استطاعتي أن أقدمه كما ذكرت. أظنه خطب يدك للزواج؟»

أجابت الفتاة: «أجل، لكنه لو علم بما حدث، فلن يتزوجني أبدًا.»

قالت السيدة برنتون: «لو لم يفعل، لن يكون جديرًا بك. لكنه لن يعرف شيئًا مما حدث. وستعدينني بالمجيء إلى هنا برفقته لمقابلتي، أليس كذلك؟»

قالت الفتاة: «أجل، يا سيدتي.»

«إلى اللقاء إذن، حتى ألقاكِ مجددًا.»

جلست السيدة برنتون تفكر مليًّا في اعتراف هذه الفتاة. واستغرقت بعض الوقت حتى تستعيد هدوءَها المعتاد؛ إذ ظنت لوهلة أن الفتاة ستعترف بارتكابها جريمة القتل. مقارَنةً بتلك الجريمة البشعة، بدت السرقة أمرًا هينًا، حتى إن السيدة برنتون كادت تبتسم عندما شردت بذهنها في محنة تلك الفتاة.

قال جون سبيد للسيد برنتون: «تلك مفاجأة كبرى. عن نفسي أشعر بسعادة جمة بذلك، إذا توصلنا إلى الحقيقة الفعلية لهذا الأمر.»

قال برنتون: «وأنا كذلك سعيد بأن الفتاة ليست مذنبة، رغم أنني أجد نفسي مرغمًا على قول أشياء تبدو ضدها لا محالة.»

قال سبيد: «سأخبرك عن سبب سعادتي. أنا سعيد لأن ذلك سيكسر جزءًا من الغرور المفرط الذي ركب ذلك المحقق الفرنسي المدعو ليكوك. لقد كان واثقًا من نفسه على نحو مبالَغ فيه. وكأن من غير المحتمل أن يقع في الخطأ. تخيل الآن الأخطاء التي لا بد أن يكون هذا الرجل قد ارتكبها عندما كان على الأرض، وكان يملك ذلك النفوذ الذي وُضع بين يديه

في باريس. في النهاية، اتضح أن ستراتون على الطريق الصحيح، وسيزج حتمًا بصديقك رولاند في السجن. لنذهب ونبحث عن ليكوك. فالأمر أروع من أن نتكتم عليه.»

قال برنتون: «سيدي العزيز، أراك تنتشي فرحًا بسبب صديقك ستراتون أكثر من أي سببٍ آخر. ألا تريد أن نصل إلى الحقيقة في هذه القضية مطلقًا؟»

«بالطبع أريد ذلك، لكن لا أريد الوصول إليها بإيقاع شخصٍ بريء في ورطة.»

«أليس من المحتمل أن يكون ستيفن رولاند بريئًا؟»

«ربما، قد أضعه احتمالًا؛ لكن لا أعتقد أنه بريء.»

«لماذا تعتقد ذلك؟»

«حسنًا، إذا أردت السبب الحقيقي؛ فهو ببساطة لأن جورج ستراتون لا يراه بريئًا. إنني أعلِّق آمالي على ستراتون.»

«أظنك تبالغ في تقديرك لستراتون.»

«أبالغ في تقديره يا سيدي؟! هذا مستحيل. إنني أحبه كثيرًا لدرجة أنني أتمنى أن يصل بنفسه إلى حل هذا اللغز، وحده ودون عونٍ من أحد، وفي طريق عودته إلى شيكاجو يُقطَّع إربًا في حادث قطار وبذلك يلحق بنا هنا لنهنئه.»

الفصل الخامس عشر

قال رولاند: «أحسب أنك ظننت للحظةٍ أنني كنت أحاول الانتحار. أعتقد، يا سيد ستراتون، أن فكرتك عني ستتغير إلى الأفضل شيئًا فشيئًا. لن أتفاجأ مطلقًا إذا خُيِّل إليك أنني قد استدرجتك إلى هنا للإيقاع بك في فخ.»

قال ستراتون: «أنت محق تمامًا، ورغم أن ذاك كان ظني، أزعم أنني لم أخشَك مطلقًا؛ لأنك كنت تحت سيطرتي طوال ذلك الوقت.»

علَّق رولاند، بلا مبالاة: «حسنًا، لا أريد التدخل في شئونك مطلقًا، لكن أتمنى لو أنك لم تخضعني لسيطرتك كثيرًا إلى هذا الحد؛ فقد يفرغ مسدسك.»

قال ستراتون: «هل تقصد أن تقول إنه لا شيء في تلك الكبسولات سوى الكينين؟»

قال رولاند وهو يفتح كبسولةً بعد الأخرى: «سأخبرك بعد لحظة. لا، لا يوجد شيء هنا سوى الكينين. ثلاثون ذرةً معبأة في كبسولات تحتوي الواحدة منها على خمس ذرات.»

بدأت عينا جورج ستراتون في الاتساع. ثم نهض ببطءٍ، ونظر إلى الطبيب والفزع على وجهه.

ثم صاح: «يا إلهي! من الذي حصل إذن على ذرات المورفين الثلاثين؟»

سأل الطبيب: «ماذا تقصد؟»

«ماذا أقصد؟! ألا ترى؟ هذا خطأ من الصيدلاني. لقد أُرسلت إليك ثلاثون ذرةً من الكينين. أما الثلاثون ذرة مورفين فأُرسلت إلى شخصٍ آخر. هل أُرسلت إلى ويليام برنتون؟»

قال الطبيب: «يا إلهي! هناك سر وراء ذلك. هيَّا، لنذهب إلى متجر العقاقير.»

خرج الرجلان معًا، وقصدا متجر العقاقير عند ملتقى شارعَي بلانك ستريت ونيمو أفنيو.

قال الدكتور رولاند للصيدلاني، مشيرًا إلى الملصق على الصندوق: «هل تعرف المكتوب هنا؟»

أجابه الصيدلاني: «أجل، لقد كتبه واحد من المساعدين لديَّ.»

«هل لنا أن نراه لبضع لحظات؟»

«لا أدري أين يمكن العثور عليه. إنه شخص لا يرجى منه نفع، وقد ذهب بلا رجعة منذ الأسابيع الأخيرة الماضية بسرعة توحي بأن ثمة ما يفزعه.»

«متى غادر؟»

«حسنًا، لقد كان يشرب حتى الثمالة ويظل ثملًا في الإجازات، واضطُررت إلى طرده. كان رجلًا ذا قيمة ووقار حين كان في وعيه، لكن سلوكه بدأ ينحرف كثيرًا لدرجة جعلتني أخشى أن يرتكب خطأً فادحًا في وقت ما؛ لهذا طردته قبل أن يفوت الأوان.»

«هل أنت متأكد أنك قد طردته قبل فوات الأوان؟»

نظر الصيدلاني إلى الطبيب الذي كان على معرفةٍ جيدةٍ به، ثم قال: «لم أسمع مطلقًا بأي خطأ، إن كان قد فعله.»

«بالطبع تحتفظ بسجلٍّ تُدون فيه جميع الوصفات الطبية التي أُرسلت من هنا، أليس كذلك؟»

«بالتأكيد.»

«هل لنا أن نلقي نظرةً على ذلك السجل؟»

«يسعدني كثيرًا أن أطلعكما عليه. أي شهر أو أسبوع تريدان الاطلاع عليه؟»

«أريد أن أرى الفترة التي أرسلت إليَّ فيها علبة المورفين هذه.»

«أنت لا تعرف هذه الفترة، صحيح؟»

«لا، لا بد أنها كانت قبل عيد الميلاد بأسبوعين.»

طالع الصيدلاني صفحات السجل، ثم قال أخيرًا: «ها هي.»

«أتسمح لي بالاطلاع على هذه الصفحة؟»

«بالتأكيد.»

مرر الطبيب إصبعه لأسفل الصف إلى أن وصل إلى خانة كُتبت فحواها بالخط نفسه.

ثم قال لستراتون: «انظر هنا، ثلاثون ذرة كينين أُرسلت إلى ويليام برنتون، وإلى جانبها ثلاثون ذرة مورفين أُرسلت إلى ستيفن رولاند. لقد اتضحت لي الصورة الآن؛ لقد بُدِّلت الوصفتان. ذهبت علبتي إلى برنتون المسكين.»



شحب وجه الصيدلاني.

ثم قال: «أتمنى ألا يُفشى هذا الخبر.»

قال رولاند: «سيدي العزيز، سيتسرب هذا الخبر حتمًا. سأكون مدينًا لك لو اتصلت بقسم الشرطة المركزي؛ لأنه لا بد من تسليم هذا السجل ليصبح في عهدة السلطات.»

تدخَّل ستراتون، وقد طغت عليه غريزته الصحفية: «اسمع، أريد أن أنفرد بهذا الخبر حصريًّا لصالح صحيفة أرجوس.»

«أظن أنه لن يتسبب ذلك في أي مشكلة. لن يُنشر أي خبرٍ حتى الغد، ويمكنك إرسال برقية هذه الليلة إذا عثرنا على علبة الكبسولات في منزل برنتون. لا بد أن نصطحب ضابطًا معنا لهذا الغرض، لكن يمكنك التنبيه عليه أو رشوته ليتكتم على الخبر إلى الغد.»

عندما ذهب الثلاثة إلى منزل ويليام برنتون، بدءُوا في تفتيش الغرفة التي مات فيها برنتون، ولكن لم يعثروا على شيءٍ بها. عند التفتيش في خزانة الغرفة حيث كانت ملابس

برنتون معلَّقة، وجد ستراتون في جيب صدرية إحدى ستراته علبةً صغيرةً تحتوي على ما وُصف بأنها كبسولات، بكلٍّ منها خمس ذرات من سلفات الكينين. مزق الطبيب واحدةً من هذه الكبسولات لكي يرى ما بداخلها. ودون تردد ولو للحظة قال:

«ها أنت ترى بنفسك! ها هو المورفين. هذه العلبة كان بها ست كبسولات، وواحدة منها غير موجودة. ويليام برنتون سمَّم نفسه! شعر بتعبٍ، وبلا شك أخذ ما ظن أنها جرعة من الكينين. يتمادى كثير من الرجال فيما نُطلق عليه اعتياد الكينين. وما يلبث أن يصبح شكلًا مخففًا من الإدمان. لقد انتحر برنتون دون أن يعي ذلك!»

الفصل السادس عشر

وقف في الغرفة التي كُشف فيها النقاب عن الحقيقة مجموعةٌ من الرجال، ممن هم أحياء على حق، لكنهم غير ظاهرين للباحثين. اثنان منهم بدا الغضبُ واضحًا عليهما، وإن كان قد بدا على أحدهما على نحو مختلف عن الآخر. أما باقي المجموعة فبدَوا في غاية البهجة والسرور. كان أحد الرجلَين الغاضبَين برنتون نفسه، الذي كان ثائرًا في وجوم. أما الآخر فكان، ليكوك الفرنسي الذي كان غاضبًا بشدة تمامًا مثل برنتون، لكنه بدلًا من الوجوم، أخذ يثرثر ويهذر على نحو مبالغ فيه.

صاح قائلًا: «اعلما أن الخطأ ليس خطئي. لقد سرت على أسس صحيحة من البداية. لكن ضللني من كان يجب أن يكون أعلم مني.» ثم واصل حديثه مستديرًا أولًا إلى شخصٍ ثم إلى الآخر: «تذكران، أيها السادة، أن ما قلته هو أن لدينا حقائق مؤكدةً للسير عليها. كان من بين تلك الحقائق حقيقة حصلت عليها من السيد برنتون. لقد قلت له في حضوركما «هل سممت نفسك؟» وأجابني، كما شهدتم جميعًا: «لا، لم أفعل.» واعتبرت إجابته حقيقةً مؤكدة. ظننت أنني أتحدث إلى رجل متزن يدرك ما يتحدث عنه.»

أجاب برنتون، في سخط: «ألم أخبرك مرارًا أن ثمة خطأً قد حدث؟ لقد سألتني إذا كنت أنا من سممت نفسي. وأجبتك بأنني لم أفعل ذلك. سؤالك كان يتعلق بالانتحار. وأنا لم أنتحر. كنت ضحية خطأ صيدلاني. لو كنت سألتني إن كنت قد تناولت دواءً قبل أن أذهب إلى الفراش، لأخبرتك بكل صراحة: «أجل. تناولت كبسولةً من الكينين.» لقد أدمنت تناوله لسنوات، كلما شعرت بأنني في حالةٍ غير جيدة. لم يخطر في ذهني شيء مما حدث.»

قال ليكوك: «سيدي العزيز، لقد نبَّهتك، ونبهت هؤلاء السادة، إلى أن التفاصيل التي تبدو تافهةً إلى رجلٍ أهوج هي الأمور التي أحيانًا ما تكون فارقة. كان عليك أن تخبرني

بكل شيء. لو كنت قد تناولت أي شيء، كان عليك أن تخبرني بذلك. لو قلت لي: «سيد ليكوك، قبل أن أخلد إلى النوم أخذت خمس ذرات من الكينين»، لقلت لك في الحال: «ابحث عن هذا الكينين، وتأكد إن كان كينين بالفعل، وتأكد أن خطأً لم يحدث.» لقد ضُلِّلت تمامًا، بل ضُللت بغباء.»

قال برنتون: «حسنًا، إذا كان ثمة غباء، فهو يرجع إليك.»

ضحك سبيد قائلًا: «اهدءُوا، اهدءُوا أيها السادة، لقد انتهى كل شيء على ما يرام. لقد أخطأ الجميع، هذا كل ما في الأمر. لقد ضُللتْ ألمع العقول البوليسية في أوروبا وأمريكا، وفي العالم بأسره، بل حتى على أرض الأرواح. جميعكم أخطأتم دون استثناء. اعترفوا بذلك، ودعوا ما حدث يمضي.»

قال ليكوك: «سيدي العزيز، لن أعترف بأي شيء. لم أكن مخطئًا، بل ضُللت. كانت هذه الطريقة ...»

«كفاك، بربك لا تَعُد إلى هذا الحديث مرةً أخرى. نحن نتفهَّم الظروف تمامًا.»

صاح برنتون بنبرة غاضبة: «أؤكد لك أن ...»

قال سبيد: «اهدأ، اهدأ، لقد اكتفينا من هذا النقاش. قلت لكم إنكم جميعًا أخطأتم، جميعكم. تعالَ معي يا برنتون، سننصرف عن هذا التجمُّع الهزلي.»

أجاب برنتون باقتضاب: «لن أنصرف.»

«عظيم للغاية، افعل ما تشاء. أنا سعيد أن اللغز قد وصل إلى نهايته، وسعيد أن من وضع هذه النهاية هو صديقي من شيكاجو.»

سخر برنتون باستخفافٍ قائلًا: «صديقك من شيكاجو! من كشف اللغز هو الدكتور ستيفن رولاند.»

قال سبيد: «عزيزي، ستيفن رولاند كان أمامه الوقت لكشف اللغز، لكنه لم يفعل، ولم يكن ليكتشف اللغز لولا أن قابله جورج ستراتون. حسنًا، إلى اللقاء أيها السادة؛ يؤسفني أن أخبركم بأنني خضت في هذا النقاش بما يكفي حقًّا. لكن اتضح لي شيء واحد أهم من كل ذلك، ألا وهو أن شيكاجو تتصدر العالم في كل شيء؛ في التحري الجنائي وفي إطلاق النيران أيضًا.»

صاح ليكوك: «سيدي العزيز، هذا غير صحيح. سأثبت لك خلال لحظة ...»

قال سبيد: «لن تثبت لي شيئًا.» ثم اختفى في الحال.

قال برنتون: «تعالَ، يا فيريس، أنت الصديق الوحيد الذي يبدو أنني فزت به في النهاية؛ تعالَ معي.»

سأله فيريس، وهما يغادران المكان: «إلى أين ستذهب؟»

«أريد أن أرى كيف ستستقبل زوجتي الخبر.»

قال السيد فيريس: «لا تفعل، تجنب أي شيءٍ من هذا القبيل. دع الأمور على وضعها كما هي. وسيصبح كل شيءٍ، كما تقولون، على ما يرام. لقد رأيت بنفسك أن تدخلك، كما سار، لا نفع منه ولا خير. أريد الآن أن ألفت انتباهك إلى أشياء أخرى.»

قال برنتون: «عظيم، سأنصت إليك إذا جئت معي ورأيت كيف ستستقبل زوجتي الخبر. أريد أن أنعم ولو بلحظةٍ أو لحظتين أراها فيهما سعيدةً ومرتاحة البال عندما تجد أن سُمعتها الطيبة لم يمسسها سوء.»

وافق فيريس: «عظيم، سأذهب معك.»

عندما وصلا، وجدا الصحفي القادم من شيكاجو قد سبقهما إلى هناك. كان واضحًا أنه قد بشَّر زوجة السيد برنتون بالأخبار كلها، وبدا وجهها متوردًا ويشع سعادةً غامرةً وهي تستمع إلى سرده للأخبار.

قال الرجل من شيكاجو: «والآن، سوف أغادر سينسيناتي. هل يحزنك رحيلي؟»

قالت السيدة برنتون وهي تنظر إلى وجهه: «لا، لست حزينة.»

احمر وجه ستراتون حرجًا، ثم قال، وهو يأخذ قبعته في يده: «عظيم، عليَّ أن أودعك وأتمنى لك يومًا طيبًا يا سيدتي.»

قالت السيدة برنتون، وهي تمد يدها له: «لست حزينة لأنني سأرحل عن سينسيناتي، وأتمنى ألا أرى هذه المدينة ثانية. لهذا إذا بقيت أنت هنا، كما ترى، فلن أقابلك أبدًا مرةً أخرى، يا سيد ستراتون.»

صاح ستراتون وهو يجذب يدها بين يديه في اندفاع: «أليس، ألا تفكرين في أنكِ قد ترغبين في اتخاذ شيكاجو مستقرًّا لكِ؟»

أجابته: «لا أعرف، يا جورج. سأذهب إلى أوروبا، وسوف أظل هناك لعام أو عامين.»

ثم قال بلهفة:

«عند عودتك، أو إذا ذهبت أنا لرؤيتك بعد عامٍ أو عامين، فهل تسمحين لي بأن أكرر عليكِ هذا السؤال مرةً ثانية؟»

أجابت في همس: «نعم.»

قال برنتون لفيريس: «هيا، لنذهب.»


هنداوي